رمانة

موسى الحمامي



رواية

موسى الحمامي

الطبعة الأولى 2015



رمانة

موسى الحمامي

Granate

Musa al Hammami

الطبعة الأولى 2015
مطبوعات سطور
بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790 - 07905219996 - e.mail: bal_alame@yahoo.com

First Published by Dar Sutour for Publishing and Distribution
Baghdad- Iraq- Al Mutnabi street- Jadeed Hassan Basha Entry

Cover Deisgn & Lay- out by: **Sillat Media**

عبقرية المرأة تكمن في قلبها

سقراط

إهداء

إلى سمائي...

أ

الليلُ مختنقٌ بصمتٍ تطرزهُ الرياحُ وهي تُلاحقُ ربيعاً لم يدم إلا بضعةَ أيامٍ ما لبثَ بعدها هارباً نادماً على مجيئه في الزمكانِ الخطأ، والسماءُ تسرحُ شعرَها الحلكي بغنجٍ معتقٍ، وهي تنظر إلى بقايا الأرضِ بعينٍ نامتْ لولا تلك الطفلة وذاك الجوع الممتد من اللحدِ إلى اللحد، أما البدر فمقيدٌ في كفِ الظلام، راقدٌ بين بنصره وسبابته كسيجارةٍ بكفِ عجوزٍ مشوهةٍ تكاد تقع فتلتقفها شفتاه لتقص عليها بطولات صبابته. لا شيء سوى صوت النفسِ المتعبِ من لا شيء وبعضاً من ظلي يتبعني. الصوتُ الصادرُ من ميلِ الساعةِ يستدرجُ الشمسَ لصباحٍ جديدٍ، وغيومُ السماءِ بدأت تعلن انسحابها بانكسارٍ مريحٍ؛ ليحدي الغيمُ بقافلته وهو يتمتم كلماتٍ تشبه ترحالهُ الأزلي. الشوارعُ فارغةٌ في هذا الوقت، والأبوابُ تحتفظ ببكارتها لأولَ سائلٍ يطرقها مستجدياً نقوداً، أو شمساً، أو يمارسُ هوايته اليومية.

يشرئب الشتاءُ متسللاً من خلالِ نافذتي المكسورة كما تتسلل الذكرى إلى قلبٍ متيمٍ مهجورٍ فألتاذ بغطاءٍ صوفيّ قديمٍ ولا عاصم من الشوقِ إلا اللقاء.

مشتاقٌ ولا أعرف لمن!

حائرٌ كطائرٍ سرقوا السماءَ من بين جناحيه! كقديسٍ كفر بزلةِ لسانٍ فظنّ الناسُ كفرتَه عبادة، إنْ أعلن إيمانه كفّره الناسُ، وإنْ بقي مؤمناً كفّر نفسه، حاولتُ الهربَ فوجدتهُ أصعب من المواجهةِ؛ خاصةً وأن جميعَ الأحلامِ أوصدتْ أبوابَها دوني، وقيل للنومِ لا تقترب.

السقفُ مطليٌ باللونِ الأبيضَ، والجدرانُ كذلك، والنافذةُ تعزف لحناً منقطعاً ومخيفاً، يشتد مع شدةِ الرياحِ ويتوقف إذا اعترض ذلك الكتابُ الضخمُ طريقه ليندفع مرةً أخرى كتيارِ جنونٍ ويستمر مصراً على سيمفونيتهِ الغريبة. البابُ مفتوحٌ قليلاً كأنه بانتظارِ شخصٍ ما، والغرفةُ فارغةٌ منّي، تخنقها الوحدةُ أحياناً؛ فتتنفس دخانَ سيجارةٍ لا تكادُ تنطفئ حتى تشتعل واحدةٌ أخرى. أوراقي الصفراءُ تغري قلمي ليستجيب جموحاً بخطهِ المراهق فأسارع بتمزيقِ علاقتهما المشبوهة؛ لأنني لا أريد لذاكرةِ الورقِ أن تحتفظ بما أنا عليه الآن.

بعضُ الكتبِ القديمة، وأخرى جديدة، وسريرٌ من حديدٍ أخفي تحتهُ كتباً أيضاً. أثاثُ منزلي مكتبةٌ مبعثرةٌ، وهناك على الركنِ الأيسر، تقبع نسخةٌ ورقيةٌ للوحةِ الأحذيةِ مثل كعبة أطوف بها من جانبٍ واحد، وأنا أردد بيتين قالهما المتنبي:

أنا تربُ الندى ورب القوافي وسمامُ العدا وغيظُ الحسودِ
أنا في أمــةٍ تداركهــا اللــهُ غريــبٌ كصــالح في ثمودِ

وبين صوت المتنبي وألوان (فان غوخ)، مسافةُ صحراءِ شبهِ الجزيرةِ وخضارِ (زندرت)، وبين تعالي موسيقاي العربية، وهدوء أفكاري، تستقر الحيرةُ وتتخذ من القلبِ بيتاً أبدياً. صلابة تنويني أكاسرها بضربِ عروضِ (الفراهيدي) عرض الحريةِ، وخمرة عيني اقتلها بخصلتها الشقراء فأنتمي للجميع.

أسمع ذلك الصوتَ الممزوج بالتبغِ وبالخمرِ، القادم من مقبرةِ الماضي خاصفاً بقايا كفنٍ بالكاد تستره، والذي يأتي عندما يتأكد من حاجتي إليه، فكلّما عجزتُ عن تحضيرِ أرواح الكلمات، وعفاريت الأفكار تذكرتُ قوله: «إذا لم تستطع الكتابة اقرأ ما كتبه الآخرون».

أقلب هدايا الوحي للعشاقِ، وأتمعن في كمائنِ أبالسة القلمِ وهم يتربصون بضحيتهم ليغلقوا عليه دائرةَ أفكارهم، وينفوه خلف قضبانِ حروفهم المنمقةِ، وغلافات كتبهم المغرية، أسكر ببيتِ قصيدِ الخمارِ، وأتوب مع تعويذاتِ القديسين، أتمايل طرباً مع الرمل، لأهدى وأتعظ بمقطوعات الموعظةِ، وسجيعات الحكم، أبحث عن أحدٍ يرشدني، عن بيتِ قصيدٍ يعرفني بنفسي، فكثيرةٌ هي القصائد التي نكتبها دون أن نعلم، وكثيرةٌ هي القصائد التي تكتبنا دون أن تعلم!

حاولتُ تجنبها أكثر من مرةٍ لكن جفافَ الصحراءِ يجعل من القطرةِ بئرا، وعندما ارتشفتُ أولَ كلمة منها تغير صوتي،

وامتزجتْ الحروف بتجربةٍ عقيمةٍ تراءتْ لي في الزاوية التي تحتضن جدارين من التجارب وأصحابها. بدأتْ الكلماتُ تمر عبر ناظري كشريطٍ قديمٍ لصورٍ أتلف الدهرُ اغلب ملامحها، رأيتُ نفسي جالساً على بقايا منزلٍ أرثي زوجتي الغبية، ليس هذا ما أردتُ أن أكونه! أتلفتُ الألفاظَ ورميتها ممزقةٌ بالهواءِ ثم ركضتُ لأفتح البابَ؛ خوف أن تستقر هذه الكائنات هنا، وتحتل مصنعي؛ لتنتج المستقبل كما يحلو لها.

كانتْ قصيدتهُ أفرغ من شوارعِ بغدادَ المعلن فيها حظر التجوالِ، أقبحُ من وجه عجوزٍ يتراهق. أخبرته الحقيقةَ وانسحبتُ، وبعدما عرفتُ أنه كتبها لزوجته الراحلةِ ندمتُ كثيراً، ولكن لا بأس؛ فمن يرثي زوجته بهكذا قصيدةٍ لابد أنه كان متضايقاً من وجودها...

توقف الميلُ قليلاً كأنه ينذر عن قدومِ عاصفةٍ، أو زلزالٍ، أو حب، تغيرتْ الحانُ النافذةِ بغتةً ومالتْ لرومانسيةٍ عميقةٍ، أورد السقفُ، والجدرانُ كذلك، اختلف كلّ شيءٍ لثانيةٍ، تشاركني السماءُ لحظتي بحبيباتِ مطرٍ بللتْ وجهي عندما خرجتُ لأتفحص الكونَ، بدأتُ أشك في هذا الهدوءِ المبالغِ فيه، تماماً كتلك اللحظةِ التي تسبق الفاجعةَ، يتنفس القدرُ بملءِ جوفهِ لينفخ بصورِ العذابِ وأنا أراقبُ...

وانتظرُ...

«لا يحق لك إهانة مشاعره وإنْ كانت بسيطةً؛ فلكلِّ إنسان حرفه»

العادةُ أن تكونَ كلماتنا الأولى سلاماً لا يحمل معناه، وترحيباً يشير إلى ما بعده أكثر ممّا يشير إلى نفسه، فنحن أهلُ المقدماتِ

ورثناها أبا عن جد، لا ندخل في صلبِ الموضوعِ، بل نحوم حوله، ونحلق فوق حقيقته، وربما نكتفي بتقريبِ الخيطِ من النارِ ولا نشعله لأن عشقنا للمسافةِ قبل الوصولِ وليس للوصولِ ذاته.

يبدو أنه ليس من عادتها أن تعتاد، أتت السلمَ من أعلاه، ربّما لأنه لا يليق بلياقتها، ربما لأنها لا تملك وقتاً تضيعه مع مجموعةِ بياناتٍ تدعي نفسها أنا.

اقتربتُ من كلماتها، مددتُ يدي، تلمستها، شعرتُ بأنوثةٍ غريبةٍ تقتحم أصابعي، انتابني الخجلُ فأرجعت يدي، تنفستها، حروفها عبقةٌ برائحةِ الغضبِ الوردي، مغلفةٌ بفوضى الخريفِ، وارتباكِ الأوراق، ممتلئةٌ بألوانِ الربيعِ، وابتساماتِ الزهورِ، وأنا واقفٌ كالرمحِ في وجهِ الفصولِ، أبتسم للألمِ لأنني وقّعت على دعوته بتمردي.

مرة اسقط من مكانٍ فوقَ السماءِ بكثيرٍ، ومرة أسابق الجميعَ بجسمٍ مشلولٍ، أحلامي تستمع بي، تلهو بساعاتي، تسهر على خوفي، وألمي وكأنها طفلٌ يعبث بحياة طائرٍ لا جناح لديه. وعندما قررت أن لا أنام تعلمتُ أن التذاكي على الحبِ غباءٌ؛ فقد غزتْ الأحلامُ يقظتي، وأصبحَ الشللُ حقيقياً والألمُ أكبر بكثيرٍ، لكن الواقعَ بغرابته، والأحلامَ بخصوبةِ خيالها ما أعجزاني عن قراءةِ جملة والسقوط من سقف مفرداتها.

ما الأمر؟ عبارةٌ مكتوبةٌ بلغتي فلم لا اقرأها؟ ليست طلسماً سحرياً، ولا سجعاً كهنوتياً فلمَ الحيرة؟

أشعر بمعرفةٍ تامةٍ لأصواتها، سبق وأن التقيتُ حروفها آلاف المرات، فلم العجز الآن؟ هل تخلتْ اللغةُ عني كما فعلتْ مسبقاً؟

أم أن اللغةَ قاصرةٌ أمام المشاعرِ؟ عن أي مشاعرٍ أتحدث؟ هي لم تغمز بطرفِ عينيها، لم تعض على شفتها، حتى حروفها ترتدي جديةً طويلة، لكن من يدري؟ ربما خلف هذا تختبئ الابتسامات، وتتوارى الشفاهُ الحمراءُ والأهدابُ الغامزات؛ فالبداية ليست جزءا من العرضِ، إنما هي محاولةٌ لإخفائه إلى حينٍ آخر...

وكيف أرد عليها إذا كنتُ لا أعرف ما قالتْ؟

كيف أرد عليها إذا كنتُ أعرف ما قالتْ ولا أفهمه؟

كيف أرد عليها إذا كنتُ أفهم ما قالتْ ولا أتجرأ على معارضتها؟

معكِ حق»

الكثيرُ قالوا جملتها ولم يكن هذا ردي! أتختلفُ المعاني باختلافِ الأناملِ؟ ربما؛ فالكلمة التي تتلطخ بأحمرَ الشفاه وهي تمر لمسامعك تختلف عن تلك المارةِ بشواربهم وان كانتْ تحمل الحروفَ نفسها.

أكتب كلمةً وأركض لحذفها، أشيّد جملةً وأهدمها، لا كلمة مناسبة ولا جملة مفيدة، اللغةُ تعترف بعجزها، والكلامُ لا يعبر عن قائله، فما عساي أن أقول، بعد أن سلمتها الحقَ من أولِ كلمةٍ؟ بماذا أقنع حروفي؟ كيف أفسر المسألةَ لتلك الأيام التي قضيتها بكتابةِ مقالاتٍ تعرض اسمي للموت قبلَ ولادتهِ؟ جميع تفاصيلي تنظر إلي كقائدٍ خائنٍ يجب التخلص منه. وبينما كنتُ منشغلاً بإقناعي أن الخطأ لن يعاد، وأنا الملام على ذلك، سمعتُ اسمي على طرفِ الشاشةِ فركضتُ مدمناً...

«موسى»

تلذذتُ به وكأني لم أسمعه من قبل! وكأنها اخترعتْ اسمي! كأن لم يناديني أحدٌ قبلها! قرأته أكثرَ من عشر مرات وما زلت أسمعه كالمرةِ الأولى! ذهبتْ أصابعي لتكتب نعم حبيبتي فاستيقظتُ من خيالي فزعاً، حذفتُ حبيبتي وأرسلتُ (نعم) يتيمةٌ من دون كلمةٍ تتبعها، أرسلتها وحيدةً، غريبةً، لا تحفها الزهورُ، ولا تتوسطها الأنهارُ، انتظرتُ الردَ كصائمٍ ينتظر الإفطارَ فأعلنتْ بعبارتها عيدين حينما قالتْ:

«أنت متمرد وأنا أحب المتمردون»

صرتُ أرددها كأغنيةٍ سبعينيةٍ: أنتَ متمردٌ... وأنا أحب... المتمردون... نعم متمردون! فالنحو من اخطأ وليست هي! كان على العلماء أن يرفعوا المتمردين لأن الحبَ يرفعُ كلَّ شيءٍ.

سرقتْ الزمانَ منّي فبدوتُ مرتبكاً بين نبضِ الساعةِ ونبضِ القلبِ، سرقتْ القلبَ منّي فلم أعرف كيف أبدو بعد، لحقتها كحصانٍ عربي أصيلٍ ولكنه معاقٌ، لحقتها كحصانٍ أصيلٍ ولكنه عربيّ، صرختُ بأعلى أملي:

«شكراً»

انتظرتُ الجواب... لا شيء... هدأ الجو، وعاد سكونُ الليلِ، وغنتْ السماءُ صامتةً من جديدٍ.

طُرق الباب... هل جاءتْ؟

«دخلي أنوسة»

كنتُ أتوقعها (أم انتصار) تلك المرأة الخمرية التي أقترب خريفُ شبابها فعصفتْ بالكبرِ قبل أن يسرق أوراقها، والتي تحبني حين أدلِّعها»أنوسة» لأنها لم تسمع أحداً يناديها بهذا الاسمِ، فما

إن غاب زوجُها في إحدى الحروب حتى شطب سكانُ الحي على اسمها وعوضوها ب (أم انتصار) على الرغمِ من كونها لم تلد ولداً ولا بنتاً، لكن الحقَ يقال، هي دائمةُ الانتصاراتِ في معاركها الليليةِ.

(أنوسة) لم تصعد إلى غرفتي اليوم، ربما لأن هذه العجوزَ بدأتْ تشعر بتعب السريرِ وتسمع شكواه من حملِ جسمين من عالمين مختلفين وجهوده في التوفيقِ بينهما.

«منو هاي أنوسه؟»

امرأةٌ غريبةٌ، جسمها الهزيل لا يشبه روحها المتينة، تكبر فيقوى سمعها، ويحد بصرها، ولا أحد يستطيع إطفاءَ رغبتها بالحياةِ ومنعها من شربِ حليب الجاموسِ، الذي تنفق جل مالها في شرائه، ويا ويل بائعه إنْ غش فمزجه بقليلٍ من الماءِ، حينها ستأكله وتشربه كما تقول النساء عنها.

جاءتْ كليلةٍ قديمةٍ تجر ماضيها بسكرٍ ومللٍ، ومن دون أن تستأذن، جلستْ على ذلك الكرسي الوحيد، ألقتْ نظرةً سريعةً على الغرفةِ تتفحصُ أجزاءها بصمتٍ متسائلٍ:

«ليش كَاعد لنص الليل؟»

كان الأحرى أن تسأل نفسها، فمن العجوز فينا؟ أجبتها بضحكة أزعجتها قليلاً:

«ناوشني جكَارة»

قدمتُ لها السجائرَ وأشعلتُ الولاعةَ بحركةٍ أنيقةٍ، هزتْ رأسها رافضةً تلك النارَ التي بين يديّ، وأخرجتْ من جيبها عودَ ثقابٍ عذبتْ به سيجارتها ليخوضَ عطرُ الغرفةِ صراعاً حتى يثبتُ

أحقيته بالهواءِ. وهل تختلف النارُ؟ هل لها طعمٌ آخر في ذلك الثقاب؟ أم أن هذه الأجيال اعتادتْ على رائحةِ البارودِ في كلِّ تفاصيلَ حياتِها.

يموت الدخانُ فينبعث غيره ما أن يسمع صوتَ احتكاك البارودِ بجسدِ العلبةِ وهنا تُولد رشةُ عطرٍ أخرى. المقاومةُ هي أساسُ كلّ شيءٍ وعندما تُفقد في زحامِ الخوفِ يصبح العيشُ مملاً وقديماً، بعض الأزمنةِ الحاضرةِ قديمةٌ جداً، كأنك عشتها مسبقاً، يكون الغدُ فيها أمساً، والغائبُ متوقعُ المجيءِ والواقعُ غائبٌ عن الوعي تماماً.

تحاول أن تنزف ما بداخلها، أن تتخلص منه قبلَ أن يتخلص منها فبعضُ الأسرارِ قاتلةٌ إذا حبستْ في صدرٍ هرمٍ، وبعضها أشر قتلاً إذا لم تحبس. تناولتني كورقة بيضاء وغاصت بأحداثها التي لا تعنيني، أو لعلها لا تعني أحداً غيري، لكن ليس الآن وأنا بين حبين...

ح

أغلبُ الناسِ يعتقدون أن الأجنةَ ببطونِ أمهاتها تسمع ما يحدث في عالمها المنتظر؛ لذلك يرفع بعضهم صوتَ الموسيقى؛ ليمنح مولوده رقصاً مستقبلياً ويعهد به إلى ذلك العالم، باذر فيه تاريخ الحاضرِ وملامحَ المستقبلِ، وبعضهم يغرد تلفازه بعبدِ الباسطِ وهو يتلو القرآنَ أو يجوده محاولاً مزج كلام الربِ بخلايا مولوده.

ترى ماذا كان يقصد والدي حين يرفع صوته مطالباً والدتي بقتلي؟

ترى كم علامة استفهامٍ يجب أن أضع بعد هذه العبارة؟ أأراد إخباري بما سيحدث كي لا أتفاجأ حين تطأ عيناي النور؟ أم أراد تنبيهي على صعوبةِ عالمه حتى أتدرب على الظلمِ وأنا داخل بيتِ رحمٍ!

هل كان يريد المزاحَ معي؟ فجعله طابعه العسكري يمزح بالقتل الذي لا يملك سواه، تأكدتُ أن لا مزاح بالأمرِ عندما اضطر لدفعِ نصف راتبه الشهري لإجراء فحص طبي أو غير طبي؛ فأي طبٍ هذا الذي يحدد يوماً لسرقةِ أنفاسِ طفلٍ ليس له ذنب إلا

أنه تقبل حياةً منحها الله إياه بالمجان!

ثلاث محاولات...

ثلاثة رواتب...

بثلاثة أشهر...

أثبتتْ أن البشر ما زالوا عاجزين أمام الله، وأن الله ما زال مصراً على إبقائي داخلَ أحشاءٍ اضطرتْ للاكتفاءِ برغيفِ خبزٍ واحدٍ يومياً؛ حتى توفر مبلغا يكفي لنجاح عملية إزالتي من الوجود.

ليتها نجحتْ...

عندما تعلمتُ كيف أتمنى، كانتْ أولَ أمنيةٍ لي (ليتها نجحتْ)؛ فأن تموت كصفحةٍ بيضاء خير من أن تعيشَ وفوقك فرشاة رسامٍ فاشلٍ، ما أجمل أن تموت بلحظةِ ولادتك، على الأقل لا تضطر للاحتفالِ بعيدِ ميلادك الذي لا يحضره إلا أنت والمساء، على الأقل لا تشغل حياتك من صفحةِ التقويمِ إلا يوماً واحداً يمكنك خطه على أحدى الزوايا الفارغة في ذاكرتك، فلا تولد حين تراها لأولَ مرةٍ، ولا تولد حين تكلّمها لأولَ مرةٍ، ولا تموت حين تبتسم بوجهك لآخرَ مرةٍ، ولا تضطر للموتِ بعد كلّ مكالمة وللبعث من جديدٍ عندما ترن الذاكرة، أو عندما يرن الهاتف.

ارتدتْ مشاعرها الشتوية الباردة، وأمسكتْ بوالدي كمعطفٍ صوفي، تمشيا في ظلمةِ الليل تتهامس أعمدةُ الكهرباءِ مستغربة من نواياهما المفضوحةِ، مدد الشارعُ قامته محاولاً تأخيرهما قليلاً؛ لمنحي بعض الوقتِ؛ كأنه ينتظر معجزة لن تأتي.

من الصعب أن ترافق شخصاً لقتلك! وأنت لا تستطيع فعل أي شيءٍ إلا أن تتنفس بأسرع ما يمكن؛ حتى ترفع من رصيد

أنفاسك التي جمعتها بالحياة.
ماذا لو علمت أنه يتنفس لك؟
يأكل لك.
لا يأكل لك!
يصلي لك، ويكفر لك أيضاً!

القبرُ يقترب وأنا أشعر بدنو ولادتي! ساعةُ انتظارٍ منحها اللهُ لهما ليفكرا قليلاً فقضياها في الإنصاتِ إلى الأخبارِ التي تتكلم عن الموتِ.

أي عالم هذا؟ عالمٌ يضع جميع ألفاظه تحت جذرٍ واحدٍ هو (موت)، معجمُ حياتنا لا يحتوي غير هذه اللفظة، قصائد شعرائنا تزخر بالموتِ، خطب أئمةِ المساجد ترهق نفسها في تفسيرِ الموتِ، تعشق إنساناً فتقول: (أموت عليك) وتكره إنساناً فتقول: (أموت منه) وفي كلّ الأحوال أنت ميتٌ، هذا ما أكدته السكرتيرة التي رفعت صوتها قائلةً:

«بعد منو تريد تسقط؟»

قامتْ فقمتُ معها... خمس خطوات، ممرٌ تبلغ مساحته ما يقارب المترين، قستُ المسافة بمعرفة عدد ضرباتِ الحذاءِ على أرضيةِ العيادةِ.

مهلا... مهلا... ما الذي أراه! أنكتة هذه؟ وقعُ الخطى على الأرضيةِ يرسمُ في مخيلتي شوارب كارتونيةً مضحكةً، وجورباً يتقن الفقرُ تمزيقها؛ لتكن لمسته التي يعرف من خلالها في كلّ المجالس التي تقتضي خلع الحقيقةِ والحذاءِ، كان صوتُ حذائه، أنا امتلك حساً رائعاً في تمييز كلّ ما هو حذاء. ليس لخطى والدتي صوتٌ!

يبدو أنها ترتدي حذاءً طبياً بسيطاً كما هو معروف عند النساءِ المتشبثات بحلمِ الأمومةِ، والمحافظةِ على الجنين.
على ماذا أرادت أن تحافظ؟ مضحكةٌ والدتي، تخاف علي من حذاءٍ بكعبٍ عالٍ ثم تهديني إلى عزرائيل كدميةٍ خشبيةٍ!
فكرةٌ أخرى، جوابٌ آخر، محتمل أنها أرادتْ الحفاظ على حذائها الوحيد فتركته ينعم بالدفءِ، من المضحك أن تكون أحد خيارين:
أنتَ؟
أم
حذاء؟
والأكثر سخرية عندما يفضل الحذاءُ عليك.
سيرةُ حياتي ممرٌ تستطيع الأطفالُ القفز فوقه دون مس أرضيته القذرة، تمددتْ على السرير فاسترخيتُ معها على مقصلتي منتظراً موعدَ الرحيل، صرختْ الطبيبة القاتلة بابي:
«اطلع من الغرفة شلون تدخل هنا»
«هاي زوجتي»
«زوجتك في البيت إهنا عيادة»
خرج ينتظر الأخبارَ من خلفِ البابِ كسجينٍ جائعٍ ينتظر غداءه المعهود. الآباء عندما ينتظرون من خلف البابِ، ويتنقلون بخطاهم الخائفة والمستعجلة، ذهاباً وإياباً غالباً ما يسمعون زغاريد، وممرضة تسارع إلى جيوبهم لتحصل على ما تيسر بعد أن تخبره بإحدى الكلمتين:
«مبارك إجالك ولد»

أو «أبنية رحمة من الله»
إلا هو، كان غريباً، كان مختلفاً، كان يريد سماع صوت غراب اسود؛ لأنه يعتقد أن البلابل الجائعة صوتها أسود بكثير.
سألتْ القاتلة والدتي:
. كيف أقتنع؟ يبدو صعباً.
. هو من أقنعني.
. أيعرف ما سيحدث؟
. لا، هو لا يجيد التقويم.
. آه... فهمت

فهمتْ الطبيبة شيئا لم يفهمه والدي الذي كان يتحرك مع تحركِ ميلِ الساعةِ، بل كان يتحرك مع تحركِ ميلي الساعةِ؛ لشدة ارتباكه، حتى أنني شككتُ بشجاعته المرسومة على بذلته العسكرية، توقف الوقتُ عندما فُتح الباب فوقف معه، قالتْ له الممرضة ومن دون أدنى تردد:
«نجحتْ العملية»
لا يعرف بماذا يجب أن يشعر؛ لذلك اختار الجلوسَ وتغطية وجهه بيديه الكبيرتين، اللتين خلقهما الله للرجل حتى يحمل بهما طفله في هذا الموقف، لكنه حمل دمعه الذي فاض من بين أصابعه. غريبٌ أنت يا والدي، أتبكي من موقف أنت صنعته؟ أنت الذي حددتْ كلّ تفاصيله، أنت الذي دفعت لعزرائيل أجرته...

يدفعني الفضول كبحرٍ هاربٍ من عصا موسى، أو كموسى هاربٍ من فرعونٍ ما، أتمنى أن أعرف بماذا كنتَ تفكر؟ عندما

حاولتَ أن تكون رباً، وأمسكتَ القدر بيدك الخشنة لترميه بأحضاني، بماذا فكرتَ؟ وأنت تقدم نهايتي إلى درجة أنها كانتْ البداية نفسها؟ من الممكن أن اسمح لكلّ الأماكن والجمادات حولي بالبكاء إلا أنت؛ فكلّ شيء يجب أن يبكي بسببك. إنها حياة، إنها حياتي، لكن مع ذلك لا اعتب عليك فلم يترك لكَ الزمن فرصة لتعرف معنى هذه الكلمة، أنت عبارة عن زيّ عسكري، وأوامر بالقتلِ، ومجموعة شظايا.

«هي هاي جكَاير، اللهَ يا أيام اللف»

ألقتها في وجهي فاعتبرتُ موقفها شكراً على طريقتها الخاصة، قامتْ نافضة ثوب وحدتها على مسامعي المشوشة، قامتْ خفيفة ومن دون أن تتكئ على عصاها بعدما أثقلتني بماضيها، وقبل أن توصد الباب تفحصتْ الغرفة من جديد وكأنها تتوقع حصول حادثة كبرى كردةِ فعلٍ! لم أشغل نفسي بما قالته لأنني مشغول بما يكفي؛ فبمجرد ذوبان صوت خطاها على آخرَ درجةٍ في الدركِ جاءتْ لتملأني من جديد...

ب

لم اندم على أي تصرفٍ، أو أي كلمةٍ صدرتْ منّي بقدر ندمي على كلمةِ (شكراً)، عاتبتني كيف اعتقدتُ أن كلمةً هزيلةً تستطيع أن تثير جوابها؟ كيف يمكن ل(شكراً) التي فقدتْ معناها من كثرةِ الاستعمالِ أن تقيد جموحها؟ كيف انتظر ردها بعد قولي (شكراً) التي نقولها لسائقِ التكسي ولبائعِ الخضرواتِ؟ حقدتُ على كلّ شخصٍ قالها لي؛ فلو لم أسمع بها من قبل لما نطقتُ بها الآن، ولما ذهبتْ دون جوابٍ، أطفأتُ عالمي، وأطفأتُ الضوءَ، وتمددتُ كقصيدةٍ اكتملتْ للتو.

رنَّ الهاتفُ... لم أجب... رنَّ ثانية... لم أجب ثانية...

حاولتُ النوم فاستيقظت من محاولتي، أدركتُ بأني سأغير مواعيد النوم، أو بالأحرى ستغيرني.

تناولتُ كتاباً من تحتِ سريري، تظاهرتُ بقراءته لكن شيئاً ما دفعني لرميه، تناولتُ كتاباً آخر فرميته مرة أخرى، أخذتُ أرمي الكتبَ كمجنونٍ يبحثُ عن عقله، شعرتُ بكرهٍ شديدٍ لكلِّ كلمةٍ لم تكتبها هي، تمكنتْ الوحدة مني؛ فرحتُ أقلب توابيت الأغاني التي قتلتها الذاكرة، بحثاً عن صوتٍ يفسرني، لا شيء

يتكلّم عنّي حتى أقرب الأغاني إلي لا يهمها أمري، آه... كم كنتُ مخدوعاً بالإنصاتِ إليها.

بزغتْ الشمسُ كرغيفٍ مخبوزٍ في تنورٍ طيني؛ فسلمها القمرُ آمالَ العشاقِ ولم تسلم عيناي للنومِ بعد، صوتُ المنبهِ ديكٌ الكتروني صاح ليوقظني من يقظتي، ابتسمتُ وتناولتُ كوباً من الشاي، أردفته بسيجارةٍ رخيصةٍ، ثم ارتديتُ ذلك القميصَ الأبيضَ الذي فقد أحد أزراره؛ بسبب العجوز الواقف أمام باب الجامعة، متشبثاً بطلابها، طالباً منهم مالاً لا يملكونه، وكنتُ كريماً حين أعطيته زرَ القميص، ومنحته فرصة رائعة ليضحك ويشتمني.

النعاس يجعلني أواجه صعوبةً في المشي بالاتزانِ الذي اعتدتُ عليه، ابتسمتُ كطفلٍ غبي لاطفته معلمته الناضجة عندما تذكرتُ جوابَ مجنوني وأنا أسأله عن سبب انتهاء علاقته بكل النساءِ فقال لي: «داريتهن مثل الماي بصينية وما رهمت» بالفعل كنت امشي مثل الماء بال (صينية) ورغم محاولاتي الجاهدة للحفاظ على استقامة الخطوات ولكن (ما رهمت) عرفتُ ذلك بعدما ارتطمتُ بعامل النظافة، وبائع الشاي، والحارس الليلي! كلّ هؤلاء كانت تمثلهم أم علي (الفراشة)، عندما كنتُ صغيرا كنتُ أعتقد أن فراشةَ المدرسةِ لديها جناحان تخفيهما عن ناظري، ودائما ما كنتُ أراقبها متشوقاً لرؤيتهما إلى أن أدركتُ أن البشرَ يحبون الألقابَ أكثر من أسمائهم.

فراشةُ المدرسةِ كانتْ عقرباً وكان اسمها تورية لحقيقتها؛ فكلّ صرخةٍ هزتْ شبابيكَ المدرسةِ بسببها، وكل دمعةٍ كحلتْ جفونَ

الأطفالِ كانتْ بتخطيطٍ منها، فهي آتيةٌ كلّ صباح، حاملة حزمةَ العصي لتوزعها على المعلمين كسلاحٍ إضافي إذا ما نسي أحد سلاحه، أو إذا اشتدّ مرحُ التلاميذِ فأحتاج سلاحاً متطوراً تمده بخرطومِ مياهٍ رفيعٍ ومملوءٍ بحصى ناعمةٍ.

قابلتني عيناها فاستفقتُ كلّياً، نظرتُ إليها وجدتها أجمل من المعتادِ، ابتسامةٌ خفيفةٌ توحي بأنه يومُ فرحٍ، فزعتُ فزعاً شديداً، استأذنتُ من نظراتها وخرجتُ مسرعاً، أخذتُ سيارةَ أجرةٍ سائقها يتكلّم عن مغامراته النسائيةِ الفاشلةِ، وأنا أفكر بذاكرتي الفاشلةِ، وصلتُ البيتَ، فتحتُ البابَ، نزلتُ وقبل أن تمس قدمي الأرضَ سألني السائق:

«لمَ تركتَ الدوام؟» هو يتكلّم بنبرةِ المهتمِ فأجبته بضجرٍ ينم عن تدخلهِ بما لا يعنيهِ «رأسي يؤلمني» ومن دون أن ينظر لي قال بصوت لا اعرف إنْ كان خافتاً أو مرتفعاً إلا أنه كان صوتاً غريباً وضبابياً بعض الشيء: «ذاكرتك تؤلمك»

كلامه مخيفٌ، الحقيقةُ مخيفةٌ دائماً...

دخلتُ البيتَ، صعدتُ السلمَ راكضاً، أخذتُ الهديةَ، نظرتُ إليها، شعرتُ بأنها تعاتبني، خرجتُ فإذا بسائق السيارةِ ينتظرني، دهشتُ لأمره فسألته: «شنو الخلاك تنتظر؟» قال وبتلك النبرةِ الغريبة نفسها «أنتَ» ولأن البحث عن سيارة أخرى يتنفس وقتاً طويلاً؛ صعدتُ معه محاولاً إنقاذ يومي، سألته مرة ثانية:

«شنو الخلاك تنتظر؟»

لم يجبني، سكت قليلاً ثم باشر بحديثه النسائي المعهود كأني لم اسأله: «إي خويه وواعدها... وأروحلها للبيت... ولا تشوف!»

كان الزحامُ سبباً في وقوفنا وسطاً، على يسارنا سيارة ممتلئة بجموح فتيات المدرسة المقابلة لكليتنا، وعلى اليمين...
على اليمينِ فتاةٌ لابد أن تكون هي...
رفعتُ يدي فوق عيني محاولاً التمعن أكثر، لمحني سائقها، أدار وجهه نحوي محدقاً بعينيه الكبيرتين كأنه أحد الشخصيات الكارتونية التي تصدر من عينها شعاعاً يدمر كل شيء، نظرتُ خلفي خائفاً، لا شيء، أعدتُ النظر لها، أنطلق هارباً بعد أن سمح المرور لخطهم بالمسير، نزلتُ من السيارة لإيقاف واحدة أخرى، كاد احدهم يدهسني، امتلأ الشارعُ بالصخبِ بعد صفارةِ المرورِ التي فتحتْ الشارع للسيارات، نزل بعضهم ليشتم سائق التكسي الذي ما زال ينتظرني، جاء أحد رجال الشرطة راكضاً وهو يصرخ:
أطلع أبو البيجو... اطلع ابو البيجو...
لم يتحرك من مكانه، تجمع الشرطة حوله، رفض المسير، أنزلوه عنوة، ثم أبعدو سيارته عن الشارعِ، كان يقاتل بصراخه نحوي...
أخذتُ سيارةً ثانية، لم اخبره أينَ أذهب بل انتظرته يسألني، لم ينطق ببنت شفة، اضطررت لإخباره:
«للكلية»
إنعطف بسرعة لندخل شارعها المملوء بالشرطة والحرس الخاص ببيت قائد الشرطة، وصلنا فأردت شكره لكني تذكرتُ كرهي لتلك الكلمة القاطعة.
خطوات قليلة وتبعني صوت أحدهم:
«أتحبها؟»

كان السائقُ الذي أعتقلته الشرطة قبل قليل، لابد أنه يعاني مشكلة نفسية، لم أرد عليه، قال بصوتٍ مرتفع:
«ليس هنالك حبيب ينسى عيد حبه... أنت لا تحب احداً... حرام عليك...»
تركتُ صراخه خلف ظهري ودخلتُ فإذا عيناها تراقبني، وتزداد جمالاً بمراقبتي. تكلمتْ بصوتٍ منخفضِ النبرةِ مرتفعِ المشاعرِ:
. حبيبي، أين كنتَ؟
. نسيتُ كتاباً، فذهبت لأجلبه.
تضحك ضحكتها الطفولية.
. ما يضحكك؟
. يبدو أن هذا الكتابَ غريبٌ فعلاً
. لماذا؟
. لأنّني لا أستطيع رؤيته بين يديك!
كيف لم ألحظ أنّني لا أحمل غير هديتها المغلفة بغطاءٍ يشبه اللونَ المرتسمَ على خدها إذا خجلتْ من مغازلاتي المستمرة؟ ضحكتُ، فقبلتْ بضحكتي رداً عليها، أعطيتها هديتي المتواضعة. قالتْ وكأنها تريد أن أكون أكثر رومانسية:
. وما المناسبة؟
. في مثل هذا اليوم ولدتُ على يديك.
شعرتُ بالكذب؛ صححتُ قولي:
في مثل هذا اليوم أصبح قلبي ملكك.
شعرتُ بالكذبِ مرةً أخرى، أدركتُ أنه لا سبيلَ للخلاص من كذبي سوى الصمت، سكتُ فجاءت يدها لتكلمني، ارتحتُ

قليلاً من حقيقتي الكاذبة، تكلّمنا كثيراً بأيدينا.
كان الممرُ الذي نقف فيه ضيقاً حين مرت بنا فتاة ملابسها أكثر ضيقاً، ولا أعرف كيف اتسع قميصها لهذا النضوج الواضح.
«ريتا... ريتا»
نادتها شهلاء فتوقفتْ ونظرتْ لي كأني من ناديتها
. مرحبا.
. مراحب.
بادرتْ شهلاء: موسى هذه صديقتي ريتا، استضافةٌ من بغدادِ شدّدت على كلمةِ صديقتي كأنها تحذرني من الإعجابِ بها فتبسمتُ وضحكتْ، لم يكن هنالك داعٍ للتحذيرِ؛ فريتا من النوع الذي لا يجذبني.
. تشرفنا أختي. رغم أن كلمات الأخوة محرمةٌ جامعياً ألا أنني تقصدتُ استخدامها مع ريتا التي ردتْ بالمثل.
. إلنا الشرف أخويه
استأذنت قائلة: «فرصة سعيدة» ضمتْ حرف الفاء بشكل جعل شفتيها ترسمان قبلة في الهواء ثم مشت متبغددة تؤكد هويتها وانتسابها للعاصمةِ.
انتهتْ المحاضرات وكأنها لم تبدأ، رجعتُ للبيت مشياً على الأحلام حتى لا ابتلي بسائقٍ آخر، كان الطريق يتخذ من نهرِ الفراتِ رفيقاً له، أسمع عزفَ الشمسِ تارةً على أوتاره اللامعة، وتارةَ على وجوه العابرين المتعبة، ارتديتُ لا مبالاتي وأكملتُ مسيري، جرني صوتٌ مبحوحٌ لعجوزٍ تلوح بيديها من بعيدٍ، اقتربتُ منها

. ما بكِ؟
. لا يهم ما بي، المهم ما بكَ أنت؟
تلافيتُ كلاهما بابتسامة حذرة قاطعتها بسؤالٍ مخيفٍ
. أتريد المستقبلَ؟
كيف أخبر عجوزاً بأنّني أكره العجائز؟ كيف أخبرها أنّني ما زلتُ أبحث عن حاضري فمن أين لي القدرة على المستقبلِ؟ صرختْ رامية نفسها في النهر، هي تغرق أمامي ولا أعرف ماذا أفعل؛ فأنا ومنذ خُلقت أكره الماءَ ولا أعرف سبيلاً لإنقاذِ شخصٍ يغرق غير الصراخِ!
بدأتُ أصرخ... وأصرخ ولا أحد يسمعني غير الله والنهر، حاولتُ أن اقترب لمحتُ في عينيها رغبة في إغراقي معها، هربتْ عيناي فأمسكها شرطي يصر على مشيته الأنيقة ويرفض الاستعجال، ركضتُ إليه، أخبرته، لم يطرأ أي تغيير على ملامحه كأن الله أخبره قبلي، اقترب الرجل من النهر وأنا أصرخ «أنقذها ألا تراها تموت... أتوسل إليك أن تنقذها» ولا يسمعني، أقترب أكثر، مسح شاربيه كأنه سيلقي خطبة في مناسبة رسمية، قال وبكلّ هدوء:
. يعني أنت تضحك عليه؟
. شنو!
لم يلتفت، تسرب لي شكٌّ بأني غير موجود وإن هذا حلم، لحظات وانتصبتْ مبللة الثيابِ كأنها خارجةٌ من حمامها اليومي، صُعقتُ لمنظرها، وتجمدتْ كلماتي قبل النطق بها، نظر الشرطي لي قائلاً وهو يتحسر على عرش ضائع:

«وكت خلاكم تضحكون على الشرطة» ثم زاد المسافة التي بيني وبينها فراغا برحيله...
أنزلتْ نظرها للأرض، قالتْ بنبرةٍ فيها من الأسف ما يقنعني: «كنتُ أدلك على الطريقِ فقط» لم تقل شيئاً بعد، أخذتها الرياحُ تجر بها بعيدا. لا أعرف أبقيتُ واقفاً عند النهرِ؟ أم أن الكون توقف عندي، عيناي تتبعها كمقبرة تودع أمواتها بصمت مفجع حد الضحك، تأخر الوقت، وأنا وردةٌ مقطوعةٌ لا تحركها غير أقدام العابرين، أو أنا قدم مقطوعة؛ فالتشبه بالورود حرام ومنهي عنه في وطني.
مضتْ كما تمضي سحابةٌ سوداء أمطرتْ تاريخا من الحيرة لتغرقني في عالم عجائزٍ مخيفٍ.
. الووووو... الووووو... موسى تسمعني، تعال بساع أنا جايتك... الوووو
هربتُ منّي! ورحتُ أركض خلفي! فلا أعرف الآن من أنا؟ أنا الهاربُ من سماوات الحزن؟ أم أنا الداعي إلى كوخِ الصبر؟ وصلنا إلى البيت كلانا واجتمعنا قبل عتبة الباب، دخلنا كشخصٍ واحدٍ كي لا تسألني تلك العجوز عن موسى الآخرَ الذي رافقني؟ وسيكون الموقف مضحكاً فهي بالكاد تعرفني أنا!
سمعتُ صوتها الذي تنبعث منه رائحةُ الشاي، سألتني كلماتها المملوحة:
«تعبان يمه؟»
سكتُ؛ لأن الجوابَ مكتوبٌ على وجهي المصفر، وشفاهي البيضاء، ولماذا تسألني؟ وهي تعرف أن السؤالَ لابد أن يكون

له جوابٌ، وبالتالي عملية تفكير تتعبني تعباً إضافياً، أنا الذي لم أعد أملك مساحةً فارغةً لحبةِ استفهامٍ. نظرتُ لعينيها فتوقف الزمنُ برهةً ثم مضى مستمراً في توقفه، دخلتُ الغرفة... ألقيتُ القبض على الحاسوب... فتحتُ حسابي... الرسائل، وجدتُ رسالةً جديدةً، احتضنني الخوفُ كشخصٍ يبحث عن جثته بين الأمواتِ؛ لينصب عزاءً لنفسه ويودع من أُحب ويستلقي للزوالِ، لم افتحها، تركتها مجهولة إذ ما زلتُ صغيراً على رؤية جثتي بعيني، سمعتُ صوتاً ظننته منبعثاً من رسالتي المختنقة، تردد الصوت فعرفتُ أنها تدعوني للغداءِ معها، استسلمتُ لطلبها وضعتُ شيئا في فمي، سألتني أكان طيباً؟ منحتها الإيجابَ، لم أكن لأعرف نوعه فكيف لي أن أعرفه طيباً أم لا؟ فمذ كلمتها الأولى لم أعد أميز بين طعمٍ وآخرَ، كلّ شيءٍ أخذ طعمها، كلّ الألوان ترسمها، كلّ اللوحات المزروعة على الطريقِ تشير إليها، لكن من دون إشارة للمسافة المتبقية؛ فأنا أعلم مدى قربها منّي ولكن لا أعلم مدى بعدي عنها.

ارتديتُ الشجاعةَ زياً ورقياً كاذباً، وفتحتُ رسالتي الجديدة، ترى هل كانت هي؟ وماذا كتبتْ؟ وماذا سأكتب لها؟ سأكتب لكن ليس لها بل له فقد كانت الرسالة نبياً مرسلاً من صديقٍ يسأل عن أخباري ولا يعلم أنا الآن من يجب أن يسأل عني!

شعرتُ برغبةٍ شديدةٍ في البكاءِ، قمعتُ رغبتي بقولٍ مشهورٍ على مستوى بيوتكم أنتم العرب (البكاء ليس للرجلِ) لكنني بأمس الحاجةِ إليه، وإذا لم يكن للرجل فلمن البكاء؟ أهو للنساءِ حقاً؟ وإذا كان كذلك، لمَ لا أسمعها تبكي؟ ألأنّها ليست

ككلّ النساء؟ هي امرأةٌ من كلمات، خدها كلمةٌ وشعرها كلمةٌ وعيناها قصيدتان.
دخلتْ وأفلتتْ الخمار بخبرة طويلة... اقتربتْ... تركتها تقترب أكثر... أخبرتها:
. اليوم ما بيه حيل، تعالي كَعدي أريد أسألك.
كادتْ تبكي من الغضبِ
. يعني أنا جايه أكَعد؟ ما تسوى صعدة الدرج.
هذه المرأة مستودع لأسرار المدينةِ برمتها، كلّ ما يخص الناس تعرفه، في حين لا تعرف عن نفسها إلا القليل، تتغذى على أخبارِ الآخرين وأسرارهم، وتنتعش لما يحل بهم من مصائب وأحزان. أستدرجها للحديث فتستدرجني للنوم، حاولتُ أن أكسر رغبتها فقلتُ:
. أنوسه إذا رجع أحمد شسوين؟
. أحمد ما يجي... أحمد مات، كنتُ أحلم به كلّ يومٍ وهو عائدٌ ليكلّلني بابتساماته وقبلاته، لكن بعد أن جرني ذلك الرفيقُ النتنُ وأخذ ما حاولتُ الاحتفاظ به لأحمد وحده، أدركتُ أن زوجي باعني لهم، أليس هو واحد منهم؟ بربك مواس تتكلم عن ماضٍ مغبرٍ وهذا الشعرُ الأحمرُ يهدي أمواجه ليديك. قالتْ هذا وهي تسرحُ شعرها بأطرافِ الأناملِ فأمتد كنهرٍ من الخمرِ يفصل بين قمتين. وأكملتْ: أنت مو طبيعي اليوم!
. طيب وعملك؟
. عملي؟
سألتني وهي تضحك بصوتٍ مرتفعٍ، حذرتها أن العجوز تسمع

دبيبَ الفرحِ، قالتْ وهي تقترب من جديد «وجدت عملاً أكثر إنسانية منه» واستمرتْ بضحكتها العارية. وبهدف الابتعاد عن هذه اللبؤة الجائعةِ؛ قمتُ متظاهراً بإشعالِ المدفأةِ، فزادت الأمر أثارة بقولها:

. استخدامُ المدفأةِ في حضرتي إهانةٌ كبيرة.

غيرتُ الموضوع من جديد

. إيناس تعرفين حنان؟

غرقتْ في حزن عميق، وكأنني ضربتُ على وترٍ حساسٍ، لم أرها متأثرة إلى هذا الحدِ منذ أن عرفتها. تنفستْ سيجارتها بقوة؛ لتنفث دخاناً كثيفاً محاولةً أن تستر معاني حزنها خلفه

. نعم أعرفها... الله يلعن مدير المستشفى جان راتبي ما مخليني محتاجة.

. وليش انطردتي؟

كنت أمارس طقوساً يمارسها الجميع، إلا أن الفرق بيننا هو أنهم يمارسونها سراً وأنا أمارسها علناً، بربك شنو الفرق؟ أليس كلانا آثمين؟ على الأقل أنا أعترف بذنبي وأستمتع به، كان المفترض أن يطرد نفسه؛ فلطالما أطفأ ضوءَ مكتبه معي شخصياً، ومع الجميع تقريبا ما عدا تلك القديسة السوداء، التي تعرف الكثير عن أجرامه الطبي، ثم عادتْ لتحزن من جديد...

ب

فتحتُ عيني...
أين أنا...؟
طبعاً في الجنةِ؛ لأنّني لم افعل ما يغضب الربَ.
طبعاً في النارِ؛ لأنني لم افعل ما يسعده.
أهناك مكانٌ لأمثالي الذين ماتوا قبل ولادتهم؟

في أحدى ليالي رمضان، سمعتُ ذلك الشيخَ الذي كانتْ والدتي حريصةً على متابعةِ برنامجه يقول: «إننا سنكون طيوراً في الجنةِ» طيورٌ؟ لا بأس؛ على الأقلِ سيكون هنالك عشٌ يتسع لطفولتي، لكنه صور الأمرَ ممتعاً، أنا أتذكر كلماته: خمرٌ، وريحانٌ، وحورُ عينٍ، ومصباحٌ بضوءٍ خافتٍ، وسريرٌ خشبيٌ و... لا... لا... لا يمكن للجنةِ أن تكون بهذه الرتابة، فهم لا يضحون بالكثيرِ حتى يحصلوا على غرفةٍ ساذجةٍ بأثاثٍ تقليدي، لابد أن يكون هذا المكانُ جهنمَ... جهنم؟ شعرتُ بشيءٍ يتحركُ فوقي، أفعى! أفعى مرقطةٌ، لا تتسع لرؤيتها عيناي الصغيرتان، بدأتْ تتحرك بسرعةٍ، تلوي عنقها، تمتد على السقفِ، تختفي لثانيةٍ، تنتصب واقفةً من جديدٍ، ليس لنظرها اتجاهٌ محددٌ؛ فلها خمسةُ رؤوسٍ، حركتُ يدي الثانية محاولاً تغطية عيني؛ فظهرت

أفعى أخرى، بالحجمِ نفسه، وبخمسةِ رؤوسٍ أيضاً، أرجعتُ يدي لمكانها فرجعتْ معها بحركةٍ انسيابيةٍ، كدتُ أغص من الفزعِ، وللحظةٍ أدركتُ أنني أسيطر عليها بالكاملِ! هي تنفذ أوامري بدقةٍ، رهن إشارتي. بدا الأمر ممتعاً، أخذتُ ألهو معها، أحرك أصبعي فيتحرك رأسها، أهز يدي فترقص بشكلٍ مضحكٍ، لا ليستْ هذه الأفعى التي تكلّم عنها ذلك الشيخُ... ليست جهنمَ، هولُ الاسمِ لا يليق بواقعِ المكانِ، وإذا كان اللهُ يتوعد أعداءه بالسكنِ هنا فأنا متأكدٌ أنَ الطريقَ للمسجدِ سيكون عبر حدائقِ الكروم!

أنا لا اسكن الجنةَ، ولا اسكن النارَ، ولم يذكر الله مكاناً وسطاً بينهما، فأين أنا؟

وأين والدتي؟

وأين صراخه، ودخان سيجارته الذي أدمنته؟

لو لم أسمع شكرها للربِ الذي ساعدها على نجاحِ العملية لشككتُ أنني ما زلت على قيدِ الحياةِ، ولكنني كنتُ شاهداً على مراسمِ القتلِ، إضافة إلى أنْ الأشياء الماكثة حولي لا تتفق مع ما أعرفه عن الدنيا، فسماؤهم زرقاءٌ وعاليةٌ جداً . حتى أنها أعلى من عمود الكهرباء الذي ليس من الممكن أن يكون هنالك شيءٌ أعلى منه وفق كلام أحد أخوتي . وسمائي بيضاء بثقوبٍ واضحةٍ لو طالت يدي قليلاً لرسمتُ عليها ما أردتُ من النجومِ! وأين الأشجار؟ أنا لا أرى أي شجرة هنا، غير شماعة الملابسِ، ومعطف تفوح منه رائحة السلطة، ينتمي لرجلٍ آخرَ بصراخٍ أقل وسيجارٍ أغلى.

رفع غشاءَ سماواتي ونظر بعدم مبالاة، همس:
«لا بأس»
هل كان ينظر لخروفِ العيدِ فيزنه بعينه لتنطلق هذه اللابأس من فمه؟
أهذا هو منكر...؟ وأين صديقه...؟ هل سيبدآن بضربي، بدأتُ اشك بكلّ ما قاله ذلك الرجل الذي صدقته من اجلِ والدتي فقط، لم يفعل أي شيء، أرجع السماء لمكانها وذهب ماسكاً معطفه، رجعتُ العب مع تلك الأفعى الراقصة رغم أنها لم تكن واضحةً هذه المرة؛ فقد أغلق السماءَ تماماً وبقيتْ الثقوبُ الصغيرةُ توفرُ مشهداً غير متكاملٍ...
معطفٌ... سيجارٌ... رجلٌ... الآن أدركتُ سرَ تأجيلها موعد العمليةِ لثلاثةِ أشهرٍ، وأدركتُ سرَ حذائها الطبي، كانتْ متفقةً على ولادتي، وكان متفقاً على موتي، فمنحته ما يريد، ومنحتْ صاحبَ هذا المعطف ما يريد، ومنحتْ الله ما يريد.
ذكية جداً، من الصعب أن ترضي ثلاثةَ أطرافٍ بفعلٍ واحد، خاصة إذا كان أحدهم رباً غالباً ما يعارض أفعالنا التي ترضي طرفاً بشرياً.
لم انم حتى استيقظ بل انتظرتُ الوجه الآخرَ للكونِ، الصباح، علّه يختلف عن الليلِ الذي عشته وحيداً فجاء كغيمةٍ تترنح من كثرِ ما احتستْ من الظلامِ الشتوي...
ترى هل كان صباحاً؟ ولماذا يتعبون أنفسهم بحروفٍ جديدةٍ؟ كان من الممكنِ أن يجعلوه ليلاً، لا أعرف ما الفرق بينهما، أفي اللون فقط؟ أنانيون بنو البشرِ؛ يميزون الأشياءَ حسب ألوانها

ولا يعلمون أن هنالك رجلاً أعمى، ورجلاً ليس أعمى ولكنه لا يرى سوى لونِ عينيها، أم أنهم فرقوا بينهما للنومِ؟ فزادوا أنفسهم أنانيةً؛ فهناك من لم تسمح له الفرصةً بالتعرفِ على غفوةٍ شاردةٍ.

ارتديا كلَّ ما يمكنهما ارتداءه وذهبا مرةً أخرى، على الشارعِ نفسه، تقع خطوات أشخاصٍ جددٍ يحملوني، والفرقُ أنني الآنَ محمولٌ بأيديهم وسابقاً برحمهم. لا أحد يجرؤ على سؤالهم وهم يفتحون بابَ المشفى، في حينِ يقف عشرات الناس منتظرين قرارا عطوفاً يسمح لهم بزيارةِ مرضاهم، وأقربائهم الذين ملئوا شظايا نتيجة القصف الهاطلِ كلّ مساءٍ.

فحوصاتٌ وفحوصات، ومشاوراتٌ، وارتباكٌ، ونظراتٌ قاتلةٌ أخرى، يا رب السماءِ، ما الذي يحدث؟ هل ولدت كي أعذب قليلاً ثم ارحل؟ جاء طبيبٌ تبدو عليه علاماتُ الهدهدِ، أنبأهم بخبرٍ جعلهم يستغربون، ينزعجون، يتذمرون، ثم يذهبون...

ابكي فأمد يدي واحتضنني محاولاً إقناعي بالسكوتِ ومن دون جدوى؛ فالصراخُ هويتي دائماً

أين انتم...؟ أين انتم...؟

أين السماء التي كنتُ أنتظر؟

أين الأرض؟ أين الله؟ أين عشائي المعتاد؟ بدأتْ أسئلتي تتواضع أكثر وتتكبر الردود عن إسعافي.

هل مات الصوتُ قبل وصوله؟ أم أن لغتي لا يفهمها أحدٌ غيري؟

أين أنتم...؟

غبيٌ من ينتظر إجابةً من أحدٍ وبإمكانهِ إجابة نفسه.
حاولتُ إجابتي فجاء الجوابُ بسؤالٍ آخرَ!
وهل تعرف أحداً حتى تناديه؟
أجبتني: لا، ولكن لابد أن يعرفني أحدٌ.
فأجبتني: لكي يعرفك الناسُ عليك أن تصرخَ بصوتٍ أعلى... وتركتني وذهبتُ.

بقيتُ محتاراً كنخلةٍ غرستْ في ارضٍ لا تعرف الماءَ، فلا تستطيع الاستلقاءَ للموتِ بهدوءٍ، ويمنعها دمها العربي من التنازلِ واستجداءِ السماءِ. تذكرتُ ما كانتْ تردده حين تجلس ذلك الطفلَ في حضنها حيث يضايقني لتتمتم «دلول يلولد يبني» حاولتُ تقليدها ولكن صوتي لم يكن شجياً ولغتي لم تكن مفهومةً؛ فلم اقتنع بالأمرِ، وعدتُ باكياً مرةً أخرى إلى أن رأيتها، كانتْ كما أردتها، بيضاء كحبةِ ثلجٍ، هادئة كما النسيم، شربتها عيناي كما تشرب النساءُ أخبارَ الجيرانِ، حاولتُ أن استوعبها فأدركتُ أن محاولتي فاشلةٌ، وأن الإنسانَ الذي يحاول فهم كلّ ما يحيط به سيفقد لذة الغموض. واضحة كما السماء، غامضةٌ كما الظلام، ترتدي ابتسامةً باردةً، دافئةً، غريبةً، مألوفةً، عيناها كما الليل، ووجهها كما الصباح، أردتُ أن اكلمها! لم أعرف لغتها وحتى إنْ عرفتها كيف اكلّمها وما زلت اجهل لغتي؟ الصمتُ لغةٌ يتكلّمها الجميع ويفهما العشاق، سألتها عن اسمها، فأجابتني شمسٌ تتأرجح بين حاجبيها بأنها نورٌ وأكملتْ عيناها التي مزقتْ الليلَ بأنها هدىً للعاشقين. إنها نور الهدى، يبدو أن كلمةً واحدةً لا تكفي لتكون اسماً لها، وإذا كان والداها

يفكران بهذه الطريقة فهما مخطئان لا شك؛ لأن اللغةَ بأكملها لا تكفيها اسماً، نور وهدى أما نور فهو اسمها وإنْ لم يطلقوه عليها لكن هدى إلى ماذا تهدي؟ تركتُ مكانَ الإجابةِ فارغاً إلى وقتٍ آخرَ وسألتها:

من أين أنتِ؟ بحثتُ عن إجابةٍ فلم أجد، علمتُ أنها من كلِّ مكانٍ!

كان هذا هو اللقاءُ الأولُ بيننا، لقاءٌ حافلٌ بثرثرةِ الهدوءِ، وغموضِ البياضِ، ونصاعةِ الليلِ. بقيتُ أترقبها لمدةِ ساعةٍ، أو ساعتين، أو لمدةِ ليلٍ؛ فما كنتُ أعرف ما الوقت أمام ميدوزا عينيها، أحفظ تفاصيلها، أتخيل كم ستتغير عندما تكبر، أين يمكن أن التقي بها مرةً أخرى؟

جاءتْ رائحةُ السجائرِ الغاليةِ، رائحةُ الضحكِ المحترمِ، ومن دون أي اهتمامٍ سرقوا معناي فبقيتُ مجهولاً، سرقوا ضيائي فتحولت تلك الإضاءاتُ إلى شموعٍ تبث الظلامَ وامتلأ الجو بركامِ الوحدةِ

ت

أنا المسافرُ عبر الزمنِ، متنقلاً بين أساطيرِ العشقِ تبعاً لرغباتك، مرة أكون قيساً إذا وجدتك ليلى، ومرة أستعد لغزو العالمِ، وأحطم كلّ قوانينِ الطبقيةِ وأذكركِ وعلامات الاستفهامِ نواهلٌ منّي، وميل الساعة يقطر من دمي، وأنساب مذاباً كسيابِ القصيدِ من فرطِ شوقي ل (غابتا نخيل ساعة السحر).

أنتِ يا تاريخ العشقِ وحضارته، جعلتِني أسكن أناساً عشقوا بعضاً منكِ ولربما أنتِ هي المعشوقةُ الواحدةُ في جميعِ العصورِ، أنا شريكُ قيسٍ في حبه، أنا الذي تجرد عن لونه وجنسه ومال عن بني جلدته، أنا من أسماك عراق ونادى بكِ في ظلماتِ الخليجِ، ألا أستحق رسالةً تطرد الفراغَ الذي ملأني حزناً؟

ماذا ستخسر أناملكِ لو رقصتْ قليلاً من أجلي، لا أطلب كلاماً شاعرياً يرهق مخيلتكِ، لا أطلب أكثر من (السلام عليكم) وإنْ كانتْ حروفها كثيرة (مرحباً) تكفي، أو حتى ثلاثة أحرف (هلا) بل قولي أيَّ كلمة وإنْ كانت شتيمةً، اشتميني وأنا أتكفل بتأويلها قصيدة حبٍ، اضغطي على أيِّ حرفٍ وأرسليه وأنا أتخيله رسالةَ شوقٍ تنتمي للقرون الوسطى. لا أطلب سوى فرصة ثانية للحديثِ، لا أطلب سوى فرصة ثانية للحياةِ.

لا انزعج من الانتظارِ الذي يذبحني باسترخاءٍ تام، لكن ما يزعجني عدم علمها بانتظاري، كيف لها أن تعلم؟ وأنا لم أقلْ غير تلك الكلمة التي يقولها مَن كان مهتماً ومَن لم يكن، مَن كان مميزاً ومَن لم يكن، من كان أنا ومن لم يكن.
أسمع صوتي يرتفع كأنه خارجٌ من مذياعٍ قديمٍ:
أنينٌ يرقص في أعماقي... وحزنٌ يشربني طرباً ثم يغني... طيفكِ ما زال يراودني... طيفكِ مازال يراودني...
ما عرفتُ هذه الأغنيةَ من قبل؛ لأنني أومن بشعبيتي وأثمل لسماعي ألحانها، فيرتعش القلبُ خوفاً من وداعٍ مستقبلي إذا فاض حنين فؤاد سالم لتجسده:
مو بدينه أنودع عيون الحبايب مو بدينه...
والعشكَ لحظة عمر وتمر علينه...
وأرضخ متوسلاً مع حسراتِ المنصور وحنجرته الصادحة:
بس تعالو...
لو أجيتوا جفوفنه انحنيها...
إذا كان تاريخي مملوءاً بآياتِ الألمِ العراقي الأصيل، فمن أين جاءتْ هذه الترنيمة الفصيحة؟ كثيرةٌ هي الأشياءُ التي لا نعرف مصدرها وبمجرد أن تأتي تغمرنا المشاعر كلّها: الخوفُ، واللذةُ، والفضولُ، والحزنُ، والفرحُ، وحتى الموت أحياناً، وأشياءٌ أخرى، وأشياءٌ تناقض هذه الأشياءَ، وسلسلةٌ من التناقضات التي لا يمكن أن نقول عنها ممتعة لأنها مؤلمةٌ كثيراً، ولا يمكن أن نقول عنها مؤلمة لأنها ممتعةٌ كثيراً، وبين ما يمكن وما لا يمكن، تذكرتُ أنّني نسيتُ عيدَ حبي الأول، لم أتذكره حتى ذكرتني عيناها، كيف

يمكن للإنسان أن ينسى حبّه؟ أليس الحبُ خارجاً عن نطاقِ الذاكرةِ والنسيان؟ ألم أقل ذلك بعشراتِ القصائدِ التي كحلتْ عينيها؟ كيف نسيتُ أنه في مثل هذا اليوم وقفتُ أتصفحها لأربعِ ساعات، اقرأها من الألفِ إلى الألفِ من جديدٍ ومن جديدِ، فلم ألحظ فيها كلمة غير الله، ولم أشتم فيها غير رائحة الخبز الممزوج ببعضِ الأفكارِ الفطريةِ كحبِّ الأم، وفعلِ الخيرِ، أشياء يتمرن عليها الإنسان طول طفولته ويتركها عندما يكبر. طلبتْ منّي أن أوعدها بأن أحفظ كرامتها، وفي تلك اللحظة كنتُ أنا الباحث عن كرامتي؛ فوعدتها» ما أتركك ابد» أجابتني بكلمتها الغريبة «هذا هو»

«هذا هو» من الكلمات التي لها سحر خاص بالنسبةِ لي، فكأنها تدل على موافقةٍ سطحيةٍ أو موافقةٍ حسب شروطٍ اتُفق عليها دونما اتفاق، يا الله! معقدة في بساطتها! تضحك إذا أضحكتها، وتبكي إذا أبكيتها، مفعمةٌ بالصدقِ مفرطةٌ بالغيرةِ.

ترى هل نقضتُ وعدي؟ وهل تنقض الرجالُ وعودها؟ وجدتُ ثغرةً أقنع بها نفسي. أنا وعدتها حد الموت، وها أنا ميت الآن، فكيف يكون الموتُ إذا لم يكن هكذا؟ لم أثر أيَّ تساؤلٍ، لم أبحث عن أيِّ شكٍ، اقتنعتُ بأنني غير مقتنعٍ، أنا لم انقض وعدي، أنا ميتٌ الآن وليس على الأمواتِ وعود، ومنذ هذه اللحظة أصبحتُ خارجَ قوسين الحياة.

إذا سمعتُ تغريدَ البلابلِ على أشجارِ بيتِ أبي وليد أقارب أحد أعضاء مجلس محافظتنا لا أطرب لها، وإذا سمعت تأوه جارتنا التي فقدتْ كلّ أقاربها وبعضا من أجزاء جسمها الهزيل لا أدمع

ولا أحزن؛ فإن كان هنالك ما تحزن الأمواتُ عليه فلتحزن على نفوسها التائهة.

كم كنتُ هادئً قبل المجيءِ، كان قلبي طفلاً مطيعاً، ونفسي عجوزاً راقدة على فراشِ السكون، أنام كثيراً وأحلم قليلاً، مجتهدٌ في كلِّ شيءٍ، مبتسمٌ لكلِّ شيءٍ. جئتِ بفرشاتكِ الناعمةِ تمارسين مواهبكِ الغريبة في رسمِ الألمِ، وابتكارِ طرقٍ أخرى له. من ينظر إلي يستشف ملامح الوجع الحقيقي ويتعرف على تفاصيله الحادة. هجمتْ على ذاكرتي أحداثُ صباحٍ لا يشبه تسميته، سائقٌ بلّله الجنون فتناولني إسفنجة تمتص ما بقي من عقله، بحثتُ كما تبحث الأمُ عن جثةِ ولدها بين أكوام العظام، وأصواتِ الموتى، أبحث عن بدايةٍ عن نهايةٍ، لا أعرف بالضبط؛ فلم أحدد الإيعاز العقلي المطلوب لذلك بدأ عقلي ببحثٍ تلقائي، لم يصلْ بي إلى أيِّ عنوانٍ، أو محطةٍ، أو بقايا لعبتي المفضلة، فكرتُ في أن لا أفكر إلى إشعارٍ آخر...

أسمع صوته الخشن وهو يزعج مسامعَ الجدرانِ، وكراسي غرفةِ الاستقبال النائمةِ مرة كلّ عام أو أكثر؛ فبعد سقوطِ النظام الحاكمِ تحول الجنديُ المطوعُ إلى رائدٍ في الجيش العراقي بقدرةِ عامر ـ صديقه القديم ـ الذي كان ينتمي لأحد الأحزابِ البارعة في ارتداءِ الملابس الدينية. ولأن الرتبة العسكرية تحتاج إلى من يضعها لكَ باعتناءٍ؛ تزوج من تلك الشابة البصرية، المعجونة بماءِ شطِ العربِ، والمصقولة بشمسِ العشارِ، كان دائماً يريد أن يكلمني، وكعادتي لا أحب الحديث مع أشخاصٍ لا أعرفهم.

المرأةُ الراقدةُ كجزءٍ من أثاثِ البيتِ تتقبل مزاحه البارد، وتتجرعه

على مضضٍ كعلاجٍ مرٍّ لا بد منه.
. انهضي فما زلتِ في ريعانِ الشبابِ.
ضحكتْ... فركضتُ إليها محاولاً الإمساكَ بضحكتها الهاربة، لم أصل في الوقتِ المناسبِ، أردتُ أن أقول «استمرا بالمزاح» فوافقا على قولي الذي أردتُ قوله
. سبعة أولادٍ، وبنتان، وستون سنة، وثلاثة حروب، وزوج مثلك؛ فعن أي شبابٍ تتحدث؟ وأوصلتْ الحرفَ الأخير بضحكةٍ حزينةٍ، التزما الضحك...
. أنا أتكلّم عن شبابي أيتها العجوز
لم أسمع أيَّ كلمةٍ بعد أن قال لها عجوز، لم يسمح لي الخوف بذلك، فذاكرتي تركض خلفي، وما حدث معي أصبحتُ أعيشه في جميع الأوقات، فكرتُ بالارتماءِ على صدرها والبكاءِ حد النومِ، تذكرتُ أن ذلك ليس من حقِ النزلاءِ، كما أنها عجوزٌ أيضاً، تداركتُ تفكيري كسائقِ شاحنةٍ أراد أن يصطدم ببحرٍ، ولأنني أجيد قيادة مراكب الهروب؛ استطعتُ النجاة من حادث جنوني المؤجل.

هـ

ماءُ الأرزِ حليبٌ كاذبٌ؛ لذلك نشأتُ هزيلاً ضعيفاً، دائماً ما أبتعد عن طريقِ الأشياءِ؛ لأنني لا أستطيع تحريكها من مكانها.
كنتُ المثلَ الأعلى في البيتِ على الأقلِ في عدمِ تبليلِ الفراشِ، الجميعُ ينظر إليّ من زاويةٍ مختلفةٍ، حتى أنا! لا أعرف إنْ كانوا يحبوني جداً، أو يكرهوني جداً؛ لأنهم لم يفعلوا ما يغضبني، ولم يفعلوا ما يسعدني، كأنني غير موجود، كأنني حدثٌ طارئ بالنسبةِ لهم، كأنهم ينتظرون زوالي ليمارسوا لعبتهم، ورقصتهم، وضحكتهم التي يجيدونها ويخجلون من تأديتها أمامي، أو يخشون أن العب معهم فتمسني ذرةُ سعادةٍ ومن ثم تتغير موازينُ القدرِ ومشيئته.
ما فرحتُ إلا في ذلك اليوم الذي سألتها فيه: «لماذا لا أحصل على أيِّ طعامٍ عندما تتأخرين في العملِ؟»
فقالتْ: «أتريد أن أخبرك سراً؟»
«نعم، أنتِ تعلمين أنني أحب الأسرار»
«أنت كائنٌ مميزٌ، لا يستطيع رؤيتك إلا الطيبون»
فرحتُ جداً... ولم يرني أحدٌ!
تردد ذلك الصراخُ الذي كنتُ أسمعه وأنا داخل أحشاء المرأة التي

ولدتني، صوتٌ رجولي آخر يطالب بإقصائي مرة أخرى.

لو كنتُ أعرف معنى الذنبِ لارتكبته؛ حتى أوفر عذراً لذلك العقاب المطالبين به، ولكنني لا أجيد غير الصمتِ، وبعض الدموعِ الصامتة أيضاً. قاومتْ رافضةً حتى جاء اليومُ الذي خيرها فيه سعيد: «إما أنا أو هذا» ولأن أسماءَ الإشارةِ تحمل معنى المشارِ إليه؛ بحثتُ عن يده إلى أيِّ شيءٍ تشير؟ عن عينيه المشتعلتين إلى ماذا يحدقان؟ إلى أيِّ جهازٍ مزعجٍ، أو كرسي يشغر مكاناً واسعاً، أو آلةٍ عاطلةٍ؟ جميع الأشياء اختفتْ بهدوءٍ، جلبتُ علبةَ سجائره الفارغة ووضعتها أمام يده محاولاً إقناع نفسي بأنها المقصودة بهذا، ابتسمتْ متأكدةً من عدمِ استغنائه عنها؛ لأنه سيجمعها مع غيرها محاولاً الحصول على جائزةٍ بسيطةٍ من الشركةِ المنتجةِ. إذن أنا النذرُ الدائمُ وأنا القربانُ الأفضلُ والمتوفرُ أبداً، أنا العنصرُ الممكن إقصائه من جميعِ المعادلاتِ، أنا الضائعُ في الوجودِ، أنا إلهُ الانكسارِ...

منظرُ وجهه الملطخ بدهانِ السيارةِ العاطلةِ أمامَ البيتِ ويده السوداء التي تحمل مفتاحَ ربطِ الصواميلِ الكبيرةِ جعلاه يبدو كأنه مقاتلٌ من الهنودِ الحمرِ، كان مظهره قاسياً جداً ولا أعرف من أين أتتْ بكلِّ هذه الشجاعة لتقف بوجهه وتصرخ كما اللبؤة غير خائفة منه. أشتد الصراخ بينهما؛ فشدني من يدي نحوه، دفعته بكل قوتها لتعيدني لأحضانها، تمسكني بيدٍ وتقاتلُ بيدها الأخرى، راح يضعف أمام موقفها؛ فرفع يده اليمنى وأنزل تلك الآلةَ الصلدةَ على رأسها مباشرة، ثم ركلني بكلِّ ما يملك من قوةٍ؛ ارتطم رأسي بالحائطِ وفاض الدمُ مني ومنها... لم يلتفت،

حمله غضبه كما تحمل الأمواجُ راكبها، خرج تاركاً عيوننا محدقةً إلى شمسٍ ظلمته حتى ذاب وعيها. لا أعرف ما الذي حصل بعد ذلك فعندما فتحتُ عيني، ألتفتُ إليها، فتحتْ عينيها، كأن عيوننا تؤدي رقصةً مشتركةً، تذوب في زجاجةِ المرارِ سوياً، وتولد أمام مصباحِ الطبيبِ سوياً، دائماً التقي بمن أحبهم حينما لا أستطيع الكلامَ إلا بواسطة نظراتٍ تنضوي تحتها ملايين المعاني.

وخزاتُ إبرةِ الطبيبِ لا توجعني بقدرِ ما توجعني نظراتها المتقلبةُ وهم يعقمون جرحَ رأسها، هي تحتاج لعلاجٍ ما، كنتُ دائما أشاهدها حين تأخذه بعد كلِّ معركةٍ تخسر فيها أمام حدة صوتِ زوجها وقوة كفه. الطبيب يتحدث مع طلابه بلغة لا اعرفها، هو يفعل ذلك وهم يتحملون حتى لا نفهم ما يقولوه. وجد الطبُ ليفهم الناسَ سببَ ألآمهم، ووجد هذا الطبيبُ ليزيد الألمَ بتركه مجهولاً. توجه أحدُ الطلابِ لحبيبتي، حاملاً جهازاً طبياً، واضعاً السماعات في أذنيه بارتباكٍ شديدٍ، ربما كان الدرسُ الأولُ له في المشفى، تركها وذهب مسرعاً؛ ليعود بعد لحظاتٍ وهو يحمل زجاجةً صغيرةً جلبها من غرفةٍ تقع أمامَ بابِ الصالةِ التي كنا فيها، معلق على بابها لوحٌ مستطيلٌ أزرقُ اللونِ مكتوبٌ عليه بالخطِ الأبيضَ (الصيدلية). كانت يداه ترتجف بشدةٍ، الطبيبُ مشغولٌ بملامحِ حسناءٍ تلتصق به، أنا أقلب بصري بين الطبيب والممرض، وقبلَ أن يزرقها الإبرةَ لمحتْ لي بعينيها وكأنها تريدني أن اقترب، اقتربتُ وأمسكتُ يدها همستْ لي:

«تعلم أن لا تضع نفسك جواباً لسؤالٍ يحتمل جواباً آخرَ؟»

ألتفتُ فلم أرَ المضمدَ، أرجعتُ بصري لها فلم تربي، هذا آخر

ما قالته وانطفأتْ...
انطفأتْ...كشمعةٍ لم توقد بعد! ما زال وقتُ الغروبِ بعيداً فلم الاستعجال يا حبيبتي؟ ما زلتُ محتاجاً إلى ضوئكِ في عتمةِ البشرِ.
أماه... سيدتي... مصباحي... عالمي...
الأمواتُ يمتلكون جواباً واحداً لجميع الأسئلةِ وهو الصمت! لا بأس؛ فهو جوابٌ أيضاً، سكتُّ لَم ابكِ، لم اقتنع بالفكرةِ؛ فمثلها لا يجب أن يموت، لم أخبر الطبيبَ ولم أخبر نفسي، رجعتُ لها علها تغير رأيها، أماه حبيبتي... ومن سيراني بعدكِ؟ صمتٌ آخر...
يوم ليش عفتيني؟ لم تجب، الله وحده يعلم، ولماذا لا يجيبني؟
«الله يرحمها، تعال حبيبي»
حاول أحدهم حملي فتثبتُ كشجرةٍ معمرةٍ، أفلتُ يداه واحتضنتها... عيني نافورةٌ مجتهدةٌ، وملامحي قصائدُ ضائعةٌ بين الخوفِ والحرمان، إن كانت على موعدٍ بالموتِ فلماذا تدعوني للحياة؟

كان بإمكانك أن تعلميني كيفية الموتِ بدل تعليمي كيفية الأكلِ فأنا جائع له، أنا محتاجه أكثر من تلك اللغة النابتة على شفاهي، أكثر من المشي دون الإمساكِ بكفيك، لم أركِ! كيف استطعتِ النجاة من هذه الدنيا! كلّ ما فعلته هو أنّكِ أغمضتِ عينيكِ قليلاً وسكتِ. حاولتُ أن افعل مثلها، أغمضتُ عيني... لم أمتْ... أغمضتهما بقوة؛ فرأيتُ شخصاً طويلاً يتنازع بياضُ وجهه مع بياضِ ردائه، لحيته الشقراء تكسبه وقاراً غريباً، على

وجهه ابتسامة مرعبة، تزيدها رعباً أسنانه البيضاء الحادة...
كان أحد الأطباءِ المقيمين في ردهةِ الطوارئ
- من هم اهلك؟
- هي أهلي.
- وما اسمك؟
اسمي...؟ كانتْ دائماً تدعوني حبيبي.
لمعتْ عيناه، تركني وذهب ليتفقد جيوبها، وجد صورتي ومبلغاً بسيطاً، سلمني الصورةَ والمبلغَ وقال: «انتظر هنا»، ساعتان مرت وما زلتُ جالساً على الكرسي لا أعرف ماذا انتظر؟ شعرتُ بالبردِ؛ فقميصي مبللٌ بالدموعِ، خطواتُ الطبيبِ تشفقُ علي اقتراباً حتى وصلتْ إلي
«هل أنت جائع؟»
تعودتُ أن لا أرد على الأسئلةِ الغبيةِ؛ لكي لا يولد جوابٌ غبيٌ بسببي فسكتُ.
«تعال معي»
بما أن الشمسَ ألقتْ مفاتيحَ العملِ لأصحابِ المطاعمِ، فقد كان ينوي الخروج من المشفى؛ ليتصدق علي ببعضِ الخبزِ، وصلنا إلى البابِ، دائماً كنت أخشى الأبوابَ؛ فهي أخطر المخلوقات وأكثرها افتراساً، فبين الحبِ والكرهِ باب، وبين الموتِ والحياةِ باب، وبيني وبينها ألف بابٍ مغلق.
أردنا الخروج، وأراد الدخول فاصطدمتْ عيناه بي وكما تصرخ الذكريات في وجه سجينٍ صرخ في وجهي:
- شجابك اهنا؟

سؤالٌ غبيٌ آخر!
أحجي ولك شجابك إهنا...وين حنان؟
. ماتتْ أمي.
. ماتتْ... وكيف ماتتْ؟ من قتلها؟
. ماتتْ
أخذ يصرخ ويضرب نفسه، وبعدها ركض وضرب الحائطَ برأسه فنزل الدمُ وتجمع بين حاجبيه، دخل صارخاً يرمي الشتائم في وجه من يلاقيه، دخل وأزال الغطاءَ عن وجه الحقيقة، نظرةٌ واحدةٌ ثم هدأ البحر...
كلّمها بهدوءٍ:
«كيف تموتين دون أن تخبريني؟»
سكت قليلاً ثم صرخ بصوتٍ أرقص الجدران «ومن يطعمهم؟ من يعتني بهم؟»
هل خططتِ للهربِ لتتركيني وحيداً مع أربعة أطفالٍ وخامسٍ لا أعرفه؟ لم أرَ في وجهه أي عزاء! كان غاضباً منشغلاً بعتابه المرير ليترك الطبيب رسالته هامساً في أذني: «يجب أن تعرف أن لدينا المزيد من هذه الإبر في حال فكرتَ بإخباره» ثم عاد يسأله:
. ما الذي حدث؟
. لا اعرف؟ كنت مشغولاً بتصليحِ سيارتي وعندما رجعتُ للبيتِ أخبرني جارنا أنها سقطت من السلمِ وهي تحمل موسى.
.على العموم البقية بحياتك...
. البقاء لله
فز سؤالٌ في رأسي، لماذا؟!

وبينما كان الطبيبُ يشرح له بعض الأمورِ أقترب مني وقال بخفوتٍ:
«وقعتم من الدرجِ لا غير... هل فهمت»
الطبيبُ يهددني، وأنت أيضاً، لا تخافوا فلم اعد اعرف من القاتل حقاً، ربما أنا الذي قتلها!

يمنح الأمواتُ شهادةً تدل على وفاتهم؛ لأن الكثيرَ من الناسِ انتحلوا شخصيةَ الموتى فقط ليهربوا من حياتهم. غريبٌ عالمُ البشرِ، ورقةٌ موقعةٌ بحبرٍ رخيصٍ تثبت وفاةَ أحدهم وقلبٌ ميتٌ لا يثبت شيئاً!
اكتملتْ الإجراءات، أخذها وذهب...
وأنا؟ من سيأخذني؟ من يشتريني بنصفِ رغيفٍ وكوبِ ماءٍ؟ الجوعُ فتت أضلاعي والحزنُ يجعلني لا أشعرُ بالجوعِ! غريبٌ في عالمِ البياض مرةً أخرى. في كلِّ حينٍ يأخذوا جزءاً منّي إلا أن هذه المرة أخذوني وتركوا جزءاً، أخذوا الكثيرَ منّي ودفنوه معها وتركوا القليل لأتكفل أنا بدفنه.

تتساقط دموعي مع كلِّ خطوةٍ كجندي شطرنج، أتقدم خطوة أخرى لأحافظ على جنودي ولكنهم يسقطون ببساطةٍ لأنني ما زلتُ اجهل قواعد اللعبةِ، ما زلتُ اجهل أن الأرضَ تستمد قوتها من دماءِ أحبائنا، وأن الشمسَ تشرق لتنير قبورهم فقط، ترى أي بقعةٍ من الأرضِ ستكون قبراً لكِ، وكيف يستوعب حنانك قبر؟ أظننتِ أن مخلوقات المقابرِ تحتاجكِ أكثر منّي؟ أم عندما لم يتبقَ عندكِ ما تقدميه قدمتِ نفسكِ هديةً أخيرة، ترى من المهدى إليه؟

تبرجٌ صارخٌ، وصدرٌ مرتفعٌ يكاد يحجب نظرها، ونظارةٌ ورديةٌ صغيرةٌ مغريةٌ إلى حدِ الخيالِ، انثنتْ علي، قبلتني ثم قالتْ:
. أنا عرفتْ الصاير ولا تخاف امشي وياي أوصلك للبيت
. يا بيت؟
سألتها بنبرةٍ تقطر يقيناً بالزوالِ، لم يعد هنالك بيت، لكن لا بأس سأذهب معها علها تعرف أكثر منّي!
صعدنا السيارةَ، رن هاتفها، قالتْ منزعجةً: «ناس ما تستحي بس مظاهر وسِبح»
وصلنا للبيتِ فنزلتْ معي لتطمأن علي ولكنها تفاجأتْ عندما وجدتْ البيتَ مغلقاً ولا أحد فيه، بدأتُ أرى نظرات الانزعاجِ، ألتفتتْ إلي وقالتْ:
. أين اهلك؟
. دفنوا.
. سأخذك معي الليلة
أخذتني...
فتحتْ بابَ شقتها، فانفتح عالمٌ آخر، نقيض ما كنتُ أعرفه، صرخاتٌ، وتأوهاتٌ، وضحكٌ، ورقصٌ، ووجوهٌ تلفزيونيةٌ، وبدلاتٌ رسميةٌ تتعرى. انشغلتْ عيونهم محدقة بنا؛ ما عدا ذلك النحيف الذي لم يفارق نظره التلفاز، سألت نفسي: أيمكن أن تكون النشرةُ الجويةُ مهمةً إلى هذا الحدِ الذي يجعله في عزلةٍ عن الجميع؟ قال أحدهم وهو يمزح معها؟
«هذا من يا واحد بيهم؟»
فأجابته بضحكتها الغجرية: «هذا ابن اشرف امرأة عرفتها»

هز يده مترنحا، جردها من ثيابها بنظرته التي ابتدأتْ من قدمها ولا اعرف أين توقفتْ بالضبط، قال: «هو أنت تعرفين وحدة شريفة!»
براكينُ الكونِ ليست إلا حبةَ ثلجٍ أمام نار غضبي في هذه اللحظة، شعرتُ أن خلايا عيني بدأَتْ تنفجر حتى أنها لبست اللونَ الأحمرَ إلى هذا اليوم، تدمرتْ أشياءٌ كثيرةٌ بداخلي، فالغضب قتالٌ إذا لم تعبر عنه، أصر على تحطيمي وزاد ضغطه على أنفاسي
«تعال ولك انطيني البطل»
ذهبتُ نحوه، حملتُ زجاجة الخمر، قدمتها وأنا أشعر بتنازلٍ كبيرٍ ولأنه شرب حقولاً من الكرْمِ؛ وقعتْ من يده وانكسرتْ.
صرخ بوجهي: «أمك لم تعلمك كيف تقدم الخمر»
«أمي؟ أتعرف من هي أمي؟» اقتربتُ منه... اقتربتُ أكثر... ورغم ضخامة جثته، وقوته، وأمواله، وسلطته إلا أنني رأيتُ الخوفَ في عينيه فشعرتُ بانتصارٍ عظيمٍ، تماديتُ بانتصاري عندما أمسكتُ رأس الزجاجة وكتبتُ أولَ قصيدةٍ لي على وجه ذلك الرجل الجسيم، رأى دمه فارتهب وارتهبتُ أكثر منه والغريب أن أصدقاءه لم يهتموا لمنظرِ الدمِ بل استمروا بمداعبة فتياتهم، وفتيانهم، ربما لأنهم اعتادوا رؤية دماءِ الآخرين وهي تسيل، إلى أنْ أخرج أحدهم مسدسه ببرودٍ شديدٍ ووجهه نحوي، نظرتُ إلى فوهته مباشرةٍ، رأيتُ مراسمَ جنازتي، حيث لا يمشي خلفها إلا قطعة بسكويتٍ قدمتها لطفلةٍ؛ فكانتْ منديلاً لدموعها، وقبلةٌ زرعتها على كفِ أمي قبل أن يزرع الموتُ قبلته الأولى في حياتي.

أطلق رصاصته الأولى، لم يكن ثابتا بما يكفي لإصابة طفلٍ فأصاب شاشةَ التلفازِ التي خلفي، أغمضتُ عيني وانتظرتُ الرصاصةَ الثانية، وأخيرا... سأرى أمي... سأشكو لها... تأخر الموتُ... صوتٌ لثلاثةِ رصاصاتٍ تأخرن أيضاً...
«كيف لكَ أن تقتل مذيعتي المفضلة» هذا ما قاله بعد أن قتل صديقه! قتله وابتسم بوجهه المحمر وعينيه البارزتين ليلتفتْ بعدها لي: «أنتَ... أنتَ كنتَ السبب في موت مذيعتي» كلّ ما أخشاه الآن هو أن يخطئ هدفه ولا يصيبني أيضاً؛ فالموتُ لا يجب أن يكون مغفلاً إلى هذه الدرجة... ركضتْ إليه، قبلتْ حذاءه متوسلةً: «أرجوك ما زال صغيراً ليموت» أجابها وهو يطرق رأسه للأرضِ في لحظة ذكرى» كلنا متنا عندما كنا صغاراً» دموعها أكسبتْ حذاءه بريقَ الكبرياءِ فأنزل مسدسه، تركته وركضتْ نحوي، خائفة علي أم خائفة من وجودِ جثةِ طفلٍ في شقتها؟ المهم أنها ألقتني خارجاً.
ابتسمتُ في وجه الهواء...
وما الجديد؟

أ

ما الجديد؟ ها أنا أدور مثل كوكبٍ أعمى يتكئ على نوره، كضوءٍ شاردٍ من ظلماتِ الناسِ، أتلمس ملامحَ وحدتي، أحتضنُ الرصيفَ وأستلقي، وحيدٌ حيث يسلط القمرُ ضوءه على الشارعِ فيكسر أجزاءً من ظلمته، آه أيها القمر... ما زلتَ موعداً للعشاقِ وعشقاً للغرباءِ، ما زلتَ ذلك الصديق الذي لا يُعرف وفاؤه من خيانته، تراك تبلغ رسائلي لتلك النورِ أم أنك تتجاهلها مثل آلافِ الرسائلِ الأخرى. أتعرف؟ أنا احبك لسببٍ واحدٍ؛ أنت تشبهها يا حبيبي، متجددٌ دائماً، تطل وفي كلِّ يومٍ يزيدك شيءٌ أو ينقصك، لا يهم، المهم أن لا تشبه الأمس... آه يا حبيبي لو تعلم كم اشتاقها عندما أراك...

نمتُ فاستيقظتُ وكأنها لحظةٌ واحدةٌ، قلتُ منزعجاً:»وهل خلق الله الشمسَ لتوقظني فقط» فتحتُ عيني بصعوبةٍ... فركتهما وانتظرتُ...

ما زلتُ نصفَ يقظٍ حتى جاء رجلٌ وجلس بقربي، لم تكن ملامحه واضحةً؛ فوجهه عبارة عن لحيةٍ، وعينين غارقتين في تاريخ من الفوضى والبشر، ضحك... وضحك... ولا أعرف لماذا؟ أمجنون هذا؟ من يضحك في بلدٍ ترقص على دفِ الرعبِ

لابد أن يكون مجنوناً، من يكاسر عويلَ نساءٍ إخوته بضحكته الكاذبةِ لابد أن يكون مجنوناً، لم اسأله، وهل يسأل مجنوناً إلا مثله؟ لكنه كلّمني:

. أنت تشبهني.

بدا الأمرُ مضحكاً؛ أنا أشبه هذه اللحية، وهذا الصوت الخشن، وحبيبتي يشبهها القمرُ، هذا يزيد الطريقَ مسافةً ويجعل اللقاءَ محالاً. نظرتُ له بهدوءٍ مبالغٌ فيه، فعرف أن لا صحة لكلامه

– قصتك تشبهني

بقيتُ ساكتاً

أتريد أن أقصها لك

من حقي أن أحب القصص؛ فأخبرته وبكلِّ شوقٍ: لا أريد!

. لماذا؟

. لأنني لا أملك ما يُدفع.

. بل تملك وقتك.

. الوقت ملك الجميع، اليوم لي وغداً... غداً... مع هذا التعب البين على وجهكَ اشك أن يكون لكَ. أعذرني

. الشاعر يولد شيخ. قالها بفخرٍ

. إذن، أنت شاعر.

. كدتُ.

قام فاتح عينيه بشكلٍ مخيفٍ، اقترب مني مستغرباً وهو ينظر ليدي، سألني:

. كيف تقول أنك لا تملك ما يدفع وهذه النقود بيدك؟

. هذه؟ هذه لا شيء، اعتقدتُ أنك تطلب شيئاً ذا قيمة، خذها

وهات قصتك. عاد لمكانه وعدل من جلسته، خُيل لي أنه يفتح ستارةَ المسرحِ عندما أشار بيديه المنفرجتين، فتح فمه واسعاً ولم ينطق بشيءٍ!

سألني: استمتعتَ؟

. إذن سرقتني.

. أنت من لم يسمعني جيدا.

غادر ممتطياً ضحكاته، صرخت وراءه: «أيها الراكب، قف لتأخذني معكَ فأنا لا أعرف أحداً أقل غرابة منك، أنا لا أعرف أحداً أكثر غرابة منّي إلا أنت، تعال لنتسلق القمرَ، تعال فمن يلوم المجانين، علمني كيف أكون مجنوناً فعقلي يرهقني»

وحين جف نهرُ الناسِ، وبدأتْ الشمسُ تجمع ضوءها؛ لتعطي المجالَ للمتسكعين، والهاربين سمعتُ ضحكاته؛ فركضتُ وراءه وهو يركض نحوي، كيف ذلك؟ أهو هاربٌ منّي؟ أم أنا هارب منه؟ وكلانا يركض نحو الآخرَ، لابد أن نكون هاربين من غيرنا، جلستُ فوصل إلي وجلس بالقرب منّي.

غريب هذا العالم؛ لا يؤنسه نديم غير محاربة إرادتنا، فمتى ما قررتَ قرر أن لا تنجح بقرارك، جلس وصوت ضحكاته يتعالى ولا أعرف كيف للإنسان أن يضحك من دون سببٍ؟ أو في الحقيقية لا أعرف لماذا لا يضحك الإنسان مع كلّ هذه الأسباب؟ ضحكتُ معه ولكن بتأدبٍ أكثر، مد لي يده مقدماً علبةَ حلوى

. هذه لكَ ولكن لا تأكلها.

. ولماذا؟

. لأنك إن أكلتها ستزداد جوعاً
وتركني وذهب، لم أفكر بما قال، بدأتُ أكل وكلّ ما أكلتُ قطعةً ازداد جوعي، قررتُ أن أحافظ على ما تبقى فما زالت مخيلتي تزخر بقصصِ التجارِ الكاذبةِ، الذين يروون بدايةَ ثروتهم من أنهم بدؤوا من تفاحةٍ، أو علبة مناشفٍ ورقية.

خجول أدور في الأسواقِ، أتكئ على بقايا كرامتي المنتهكةِ، بعضهم يترحم علي فيشتري، وبعضهم يترحم على طفله فيشتري، وبعضهم يترحم علي وعلى طفله وعلى جيبه الذي لا داعي لوجوده. وحين شارف الليلُ على إكمالِ النصف الأول من مسيرته الأزلية، لم يتبقَ لدي سوى قطعة صغيرة من الحلوى الشعبية، وأصغر منها من الصبرِ على التعبِ، قضمتها بلهفةٍ ثم تمددتُ على اقرب رصيفٍ وقمر...
يستخدم عصاه في إيقاظي من النومِ، نظرتُ إليه أردتُ أن أشتمه... شتمتُ نفسي:
. لعنة الله على ذاك اليوم.
. شبيك؟
. نعسان وتعبان.
. إكَعد؛ حتى أسمعك قصتي الجديدة...
قالها وهو يسرق النظرَ للنقودِ التي كانتْ داخل قبضتي، رمقته باشمئزازٍ، ألقيتها في وجهه، لم ينزعج، أخذها وركض هارباً كعادته، جميل أن تدور النهار والليل من اجلِ مبلغٍ بسيطٍ وحينما تحصل عليه، تلقيه في وجه أحدهم؛ كي تشعرَ ببعضِ الكرامةِ، أو الغرورِ، كان ذلك الإحساس يعجبني جداً...

. حبيبي
. نعم حبيبتي
. لِمَ تأخرتَ؟
. المستقبلُ بعيدٌ وأنتِ... أنتِ جميلةٌ جداً.
. حبيبي... إنْ تأخرتَ أكثر فلن أعرفك وسأكون زوجةً لذلك الطبيبِ حفاظاً على مهنةِ العائلةِ.
. ماذا افعل وأنتِ أجمل في كلِّ مرةٍ؟
. تعال...
. أنتِ عمري...
. أنتَ عمري...
. أنتِ عمري...
«شكَلت ولك؟»
شتمته أكثر ولم أكلّف عيني عناء نظرةٍ حتى شعرتُ بأن السماءَ سقطتْ على رأسي؛ عندما ضربني بقدمه الكبيرة، حملني بعدها من ياقةِ قميصي، وأخذ يجر بي منهالاً علي بلكماتٍ كأنه تدرب عليها لعدةِ سنوات من أجلي، وقبل أن يرميني وسط ذلك المجرى القذر الذي يشطر السوقَ لنصفينِ؛ فيكون الخط الفاصل بين محلاتِ القصابةِ، ومحلاتِ الخضارِ، أمسك شعري فشعرتُ بأنه اقتلع نصف رأسي الأعلى، بعدها حملني والقاني حيث تلقى الفضلات...
كنتُ أسمع ضحكات المارةِ وأصواتَ بائعاتِ السمكِ وهنَّ يشيدنَّ بقوته، لم أكن أعلم أنهم يطردون الأطفالَ من أمام محالهم بهذه الطريقة، كان البعض يقف حزيناً من أجلي، لكن لا

أحد يجرؤ على إبداء غير الحزن كالعادةِ... حاولتُ الخروجَ من هذا النهرِ الأسودَ فلم أستطع ذلك إلى أن جاء مجنوني ليساعدني بعد أن أغلق ذلك القصابُ محله ذاهباً لتناول الغداءِ...

***

لا أملك حذاءً لذلك لا أملك هوية؛ لأن الفقراءَ يعرفون بأحذيتهم الممزقةِ، ولأنه قرر أن ادخل المدرسةَ كان لزاماً أن ادخل إلى محلِ الأحذيةِ أولاً، فعقل المدرسة في عينها؛ حيث يدعى الطالب الذي لا يمتلك حذاءً (حافي) ويدعى الطالبُ الذي لا يملك عقلاً(مرتب) ولا يسمحون للأول أن يستعمل عقله، ويسمحون للثاني أن يستعمل حذاءه، لم افرح بشرائه؛ لأنني ومنذ البدء كنتُ أعتقد إن هذا حق وليس أمنية، الحذاء من حقي، ولكن عندما تصبح الحقوقُ أمنيات يصبح الحذاءُ أهم من العقلِ، دخلنا للمدرسة مديرها حذاءٌ قديمٌ، رفضني وأصر على حضور ولي أمري فهو لا يدرك أن الله حاضرٌ في كلّ مكانٍ، سارع مجنوني ووضع مبلغاً بيده عوضه عن المستمسكات، وعن الله فوافق وقُبلت تلميذاً في الصفِ الأولِ.

أنا في المدرسةِ الآن، بين أضغاثِ الحروفِ وبقايا الكلماتِ، أتعلمها بسرعةٍ فائقةٍ، عندما ينتهي الدوامُ، أركض للسوقِ لأوفر عشاءً، وعندما ينتهي العشاءُ أركض لكتابي لأوفر صباحاً خالياً من ضرباتِ الجلادِ، كانوا جلادين في مدرستنا، من لا يحفظ الدرسَ يضرب بعصا لو ضُرب بها قديساً لكفر.

سوزان... امرأةٌ منحرفةٌ تعلمنا الدينَ والأخلاقَ
وحميد... رجلٌ بدينٌ يعلمنا كيف نحافظ على رشاقتنا
وابتهال... معلمةُ الفنونِ تعلمنا الكرمَ؛ فقد منحت كلَّ حصصها لبقيةِ المعلمين؛ لأن الأطفالَ هنا لا يحتاجون للفنِ، فلا يمكن إصلاح لوحة مشوهة إلا بتمزيقها، بالفعل؛ كنّا نُمزق هناك، كنّا نُضرب، كنّا نُهان، بل كان أحدهم يكفر بمقدساتنا، حتى الله الذي كنتُ أتصور أن لا أحدا يجرؤ عليه لأنه القوي وجدته ساكتاً عن شتائمِ هذا العجوزِ لأنه الرحيمُ، لم أتعلم من تلك المدرسةِ سوى كيف أتقبل الظروفَ، تقبلتُ كلَّ ما لا يتقبله بشرٌ...
عندما أكملتُ الابتدائيةَ كان يصر بقوله»خُلقت لتكتب«
وكنتُ اعترض صارخاً
«ما أريد؛ شبعت من الدكَ والإهانة»
حتى انقضتْ العطلة وبدأ التسجيلُ في المدارسِ الثانويةِ، جلس معي، وبدأ يظهر عقلاً لم أره منذ أن عرفته، قال لي بهدوءٍ تامٍ:
. حبيبي موسى أسمعني جيداً (يجب أن تستمر)
هو يحترق مع كلماته وأنا أرد بسذاجةٍ
. ليش؟
. لتخط قصيدتك.
. يا قصيدة؟ هو أنا أعرف شنو القصيدة!
عندما تكبر ستعرفها وستعرفني لكن عدني بأنك ستستمر. برقتْ عيناه ولأنني خفتُ أن يمطر وينتهي؛ وعدته ولكني ما زلتُ اجهل عن أيِّ قصيدةٍ يتحدث؟

«الحنين يبدي روحه بصحن غيره»

عندما كنتُ أسير وأردد هذه العبارة التي لا أعلم من أين التقطتُ حروفها، امسكني وقال: «تحققتْ نبوءتي» فكرتُ أن عقلَ هذا الرجل انتهتْ صلاحيته تماماً، إلا أنني ماشيتُ وضعه سائلا:

أي نبوءةٍ؟

. لا عليك استمر...

. وما الضير...

«الحنين يبدي روحه بصحن غيرة»

«الحنين اليترس الدنيا خضار وهو عطشان عل مايه»

جاء يومُ ذهابنا إلى المدرسةِ للتسجيلِ، الحكومة تصر على تعيين أجساماً كبيرةً تشغل الكراسي الكبيرة، لا بأس، اعتدتُ على تصرفاتهم فما عساهم أن يفعلوا غير الضربِ والشتمِ؟ مسامعي ممتلئةٌ، وجسمي ما عاد يتألم، أكملنا تسجيلنا بالطريقةِ المعهودة، كم هي بطيئةٌ أمتي في مسيرها، تسجيلي في المدرسةِ الابتدائيةِ كان برشوةٍ، وتسجيلي بالثانويةِ كان برشوةٍ أيضاً، إلا أن الثانيةَ أبهظ من الأولى تقريباً، رائعٌ... الأمةُ تسير إلى الوراءِ والمدرسةُ اسمها (أبطال الغد)!

اذهب إلى المدرسة راكضاً وأرجع من المدرسةِ راكضاً، أجول المحلات والأسواق، أحصل على ما يكفي لعشاءِ اليومِ، وغداءِ غد ثم أركض إلى تلك الغرفةِ المظلمةِ الباردةِ التي منحها أحدهم لنا مقابل تنظيفِ جميع المحلاتِ التي يمتلكها، أشعل فانوساً قديماً، وافتح كتابي، اقرأ حتى أغفو عليه لأستيقظ راكضاً إلى

المدرسةِ. وهكذا...
كنتُ أسابق الوقتَ، خاصةً وأن المجنونَ بدأ يمرض، ويهرم، وأصيب بداءِ النسيانِ، ورغم قبعة السلحفاة التي وضعتْ فوق ظهري إلا أنني ما زلت الغزال الأول على المدرسةِ، وحين وصلتُ الصف الثالث، كنت أستطيع أن اجتاز أي امتحانٍ في أي مادةٍ ومن دونِ أن أرهق نفسي بالقراءةِ كما يفعل الآخرون...

م

السماءُ تمطر بجديةٍ تتجه نحو العذاب، والأرضُ تحتاج لقدمٍ كبيرةٍ؛ حتى تحافظ على كرامةِ خطواتها، هو يسعل بشدة، وأنا ارتجف بشدة، الوقتُ يركض، ماذا أفعل؟ اختباري بعد ربع ساعةٍ، مصيري بعد ربعِ ساعةٍ، وعيناه تحدقان بي، لا يملك أيَّ علاجٍ، ولا أملك أيَّ نقودٍ، قميصي الصيفي في وقتٍ كهذا يزيدني برداً وتصطك أسناني عازفة بقضقضتها أنشودةَ الانكسارِ، ارغب بالبكاءِ ولكن الوقتَ ليس وقت بكاءٍ، ومن يراضي كرامةَ طفولتي إن بكيت؟ من يحضنني؟ من يصنع الابتسامةَ من دمعي وينثر الحبَ على ملامحي المقفرة؟ رأيتُ شفتيه تتحركان، اقتربتُ منه، أراد أن يقول شيئاً... قاطعته نوبة سعالٍ، أخافني كثيراً، عيناه تكاد تفلت من زمامِ أحداقها، وعظامه تقترب من صورةِ المومياء في كتابِ التاريخ الذي أحمله، هدأ، سيطر على نفسه لوهلةٍ وقال: «امتحن وعندما تعود مز...» لم أفهم ما قاله، استجمع قواه وأعاد كلمته الأخيرة «مزق»

انطفأ أيضاً، ما بالكم يا أحبائي تنطفئون وأنا في اشدِّ حاجتي لنوركم؟ ما بالكم تهمسون بجملٍ غير مفيدةٍ ثم تموتون؟ أحقا؟ أهذا كلّ ما تستطيع قوله؟ أهذا ما ادخرته ليومِ الرحيلِ؟ أمزق!

أمزق ماذا؟ ولا يوجد في الغرفةِ إلا أنا وأنت، أتطلب منّي أن الحق بكَ؟ لا يا سيدي فقد حاولتُ ذلك من قبل ولم انجح!

أصابني رعبٌ سمرني في مكاني، البردُ ما زال مستمتعاً برقصِ فرائصي، لا أعرف ماذا افعل؟ وما الغريب؟ الأطفالُ عادة لا يعرفون ماذا يفعلون، ما الغريب؟ لماذا استغرب خوفي؟ أنا ما أزال طفلاً، طفل يقف وحيدا أمام جنازةِ عجوزٍ، عجوزٌ تخافه الأطفالُ وهو حيٌّ فكيف وهو ميت؟ حاولتُ أن أنفذ وصيته، لكن يا ربي لا يوجد في الغرفةِ ما يقبل التمزيق، هل كانت هذه نكتتك الأخيرة؟ الجدران لا تمزق... والسقف... والأرض... وأنت... والساعة، الساعة... لم يتبقَ إلا عشر دقائقٍ وما أزال واقفاً، يجب تنفيذ وصيته، أي وصيةٍ هذه؟ مزق...؟ فراشه... نعم كان دائمَ الحرصِ عليه حتى أنه لا يغسله أبداً، ومن سيقلبه؟ من سيقلب ميتاً عن فراشه ويبحث فيه؟

أنا؟ تشجعتُ... خفتُ... تشجعتُ... ترددتُ... قلبته... أرتطم رأسه في الأرضِ وبدأ الدمُ يفيض منه، يا الهي لا يوجد أرعب من ذلك، باشرتُ بتقطيعِ قماش فراشه البالي، لم أجد شيئاً، أخذتني سكرةُ جنونٍ، أمسكتُ الفراشَ وأخذتُ اضربه بالحائطِ وعندما فتحتُ عيني وجدتُ الغرفةَ ممتلئةً بالنقودِ.

نقود؟ وهل من يملك هذا المبلغ يقضي العمر متشرداً في الشوارعِ، يبيع حبَ الشمسِ، ويأكل خبزاً يابساً، أهذا يعقل؟ أتقول لي عيناي أني عثرتُ على كنزٍ؟ بل عثرتُ على كنزٍ وجثةٍ! علي أن أتخلص من أحدهما، جمعتُ النقودَ... وقبل أن أضع آخرَ ورقةٍ في الكيسِ، دخل رجل لم أميز وجهه أول الأمرِ وما أن عرفته حتى

بدأ رأسي يؤلمني، كان ذلك القصاب البدين، دخل وأمسكني بيدٍ وامسك الكيسَ بيده الأخرى، نظر ملياً بالنقودِ وكأنه يعدها بعينه

. هاك

. شنو؟

. اخذ، هاي الفلوس كَدامك اخذ التريده... مو كتلت الرجال علمود جم فلس... هاك اخذ

. بس... بس انا ما كتلته

. أدري...

أخرج سكينا ذا حلقةٍ فضية اللونِ، غرسها بصدرِ العجوز فانتفض الدمُ صارخاً ملطخاً يده ووجهي، فتح كفي، ووضع قبضةَ السكينِ داخلها ثم أغلق أصابعي بقوةٍ، قال:

«والآن قتلته»

ضحك بجنونٍ مرعبٍ، وأنا ما أزال امسك السكين بيدي المرتجفة حتى أخرج مبلغاً من الكيسِ، وضعه بجيبي، ثم امسكني من يدي الثانية وأخرجني من الغرفة وهو يمثل صراخاً وحزناً لا يمكن لأحد أن يشك به.

«قتله... قتله» تجمعتْ الأشياءُ والناسُ والسياراتُ حوله وهو ما زال يصرخ «قتله... ابن الكلب قتله»

طلقة للأعلى كفيلةٌ لفتح الطريق أمام مصيري، ألقي القبض علي متلبساً بكلِّ شيءٍ: النقود، والسكين، والجثة، وأنا...

ما أبشع أن تكون متهماً وأنت متأكد من براءتك إلا أن القانون يصر على أنه يعرفك أكثر، هنا ستشك بأنك لا تعرف

من أنت، هنا ستتهم نفسك، وأحياناً تعترف إذا ما زادتْ فولتية الأسلاك المعلقة في ذكورتك، وحلمات صدرك.
أنا متهمٌ بقتلِ الرجل الذي أنقذ حياتي، النقود التي فكر إنها ستجعلني سعيداً جعلتني سجيناً، سجينٌ متهمٌ بالقتل.
زنزانةُ السجنِ صورة مصغرةٌ عن بلدي، أفعل ما تشاء وكلّ ما تشاءه ممنوع، كنا أربعة أشخاصٍ موزعين على ثلاثةِ جدران، أما الجدار الرابع فقد كان بمثابةِ حمامٍ للجدرانِ الثلاثة، لا تميز شاربيه من لحيته إلا أن الثانية أطول بكثير، ساكتٌ كما أنا، يسبح كما هو، هذا أحدهم أما ثانيهم فهو نقيض الأول، وأما ثالثهم فهو نقيض الاثنين معاً ونقيض نفسه. يد وضعتْ على كتفي لتقول:
«لا عليك فالله موجود»
بعد قليل
يدٌ وضعتْ على كتفي:
«طلع الإبجيبك وتعال يمي قلبي»
اليدُ الأولى لم تحرك ساكناً وأنا أيضاً، نصفُ قالبٍ من الشوكلاتة المحلية كل ما بقي بعد أن اخذ الشرطي النقود التي أرسلها القصاب بجيبي لتكون دليلاً إضافيا. أخرجته ووضعته على الأرض.
«شنو هاي ولك جنك تدري انا محتاج الحلاة!»
أخذها وأنا انظر إلى تلك اللحيةِ التي أنبأتني منذ قليلٍ بأن الله موجود وكأني أريد اختبارَ صحة كلامه!
رابعنا لم يتحرك؟ غارقٌ في عالمه الخاص، فاتح عينيه، وواضعٌ تلك القبعة الفرنسية التي يرتديها الرسامون، والشعراءِ الذين

يحبون التميزَ حتى وإن كان ذلك بوساطةِ قبعةٍ مستوردةٍ.

لا يهتم... لا يرانا...

قال لي كمال، والذي عرفتُ اسمه عندما طلب منه السجانُ أن لا يتدخل وإلا... لفظة احذفها ليس لأنني محترمٌ أو مؤدبٌ ولكن لأن ذلك الرجل لا يستحقها

. خلينا نصلي

. نصلي؟ كيف؟ ولماذا؟

كتابُ الدين الذي يُدرس في مدرستنا أحفظه عن ظهرِ قلبٍ، أحفظ خطوات الوضوءِ، أحفظ الأذان، والإقامة، والسورتين، أنا حافظٌ لكلِّ شيءٍ... حافظٌ فقط؛ فما توضأتُ من قبل، وما صليتُ، ناولني بعض الماء بإناء حديدي صدى، أغفل عينيه عني متوجها بهما للقبلةِ؛ فغسلتُ وجهي، ويدي، وثبّتُ قدمي، ثم رأسي، كان خطأ، أوه... لن تُقبل أفضل صلاةٍ لي، لِمَ بدأتُ بالقدمِ؟ ألأنني بحاجةٍ للوقوفِ أولاً! من المخجل أن تحفظ عشرات السورِ ولا تجيد الوضوء إلا على ورقةِ الامتحانِ، وقفتُ وراءه متذكراً صورة ذلك الطفل الذي يرتدي زياً عربياً ابيضَ، ويقف لجنب والده في الصفِ الأول من المسجدِ، كم تمنيتُ أن أكونه ولو لصلاةٍ واحدةٍ.

أخذتُ أقلد حركاته واستغرب عندما يسكت فأبقى اهمس أشياءً أتذكرها وأخرى لا أتذكرها، يركع وأركع معه، ويسجد واسجد معه، إلى أن انتهتْ صلاته فأنهيتُ صلاتي... كأنني أصلي من أجله!

«تقبل الله»

حتى هذه لا أعرف كيف أرد عليها، فلم احظ بمن يقولها لي، ولم احظ بفرصةِ الردِ عليها إلى الآن، سكتُ وانتظرتُ صلاةً أخرى حتى أقول له «تقبل الله» وأعرف كيف يرد حينئذٍ.

الغداءُ يقدم في جميعِ الأماكنِ إلا في السجنِ فهو يلقى، غداءٌ يلقى؟ والكارثة إننا بشرٌ، لحظة؛ لم أعد متأكدا من كوني بشرياً؛ فالشرطة تمارس كثيراً من العاداتِ التي تقربنا من أجناس الحيوانات الأخرى.أو لعلهم يخجلون من تقديمِ خبز الشعيرِ على مرأى من بطوننا الجائعة، آه... نسيتُ أن الشرطةَ في ذاك العصر لا تخجل، فهم الذين جعلوا زجاجةَ الخمرِ كرسياً لذلك العجوز، كان يتذكر ألمه كلّما امسك زجاجته وأتذكر قوله: «ألا يمكن أن يضعوا الخمر بأكياسٍ مراعاة لمشاعرِ المساجين وحفاظاً على كرامةِ تاريخهم»

وقبل أن تبتعد الشمس اقترب كمال مني

ـ ما اعرف إشلون أفهمك بالوضع ولكن الليل هنا ما يسمح بالنوم

ـ ما فهمت

ـطبعا ما تفهم... شوف انا راح اكَعد بعيد عنك واسألك بصوت عالي» أنت بشنو متهم» فتجاوبني»متهم بقتل» حتى محد يأذيك. ماشي؟

ـ ماشي

وقبل أن تبتعد الشمس ابتعد كمال عني

ـ بالله خوية أنت شنو تهمتك؟

ـ قتل

قلتها وكأنني أفتخر بانجازٍ عظيمٍ فرد الثلاثة علي بصوتٍ كان صوتُ الأولِ منهم بارزاً

«قتل؟... شلون قتل؟ أنت بعدك طفل... العفو ما اقصد... ما مبين عليك»

لم أجبهم... كما أفعل مع زملائي عندما يسألوني عن درجةِ الامتحانِ وهم يعلمون أنني أعلاهم درجةً، قاموا جميعهم واقتربوا مني، قال كمال:

«موسى أخوك احمد يريد يعتذر منك» لم أرد إلا بنظرات مثلتها بإتقانٍ أرعبهم وأعجب كمال...

وجاء الليل...

أنا اختبر الليل داخل الزنزانة، أحاول النوم واقفاً لأن الحذاء يحرسني من بردِ الأرضيةِ بينما أتلاشى أنا تحت معطفِ كمال الذي يجلس أمامي كدرويش لا تهمه سهام البرد، وظلام الليل.

الخوف...

والصمت...

والبرد...

وطيف أمي...

وطيف والدتي...

وطيف ذلك العجوز الذي أراه متكئا على عصاه، وذاكرتي ذاكرتي تطوقني، أنا سجينٌ في الزنزانةِ، وسجينُ الذاكرةِ، مر جميل بصوته الفظ بقربي حاملاً عصا كهربائية مثل التي يحملها شرطةُ الشغبِ محدثاً برقاً قوياً وهو يضرب أبناءه، حاولتْ أمي إبعاده عنهم؛ فضربها أيضاً، ركضتُ نحوها بجسمٍ مشلولٍ وصلتُ

متأخراً، قالت:
«لا تضع نفسك جواباً لسؤالٍ يحتمل جواباً آخر»
ثم قامتْ ضاحكة وهي ترقص (الجوبي) جاء رجلٌ عجوزٌ يرتدي ملابسَ طبيبٍ، يبدو أنه مديرُ المستشفى، امسكها من خصرها، استمرا في الرقصِ، ثم حاول تقبيلها فصفعته، صرخ وهو ينظر للسماءِ «أوه أيتها السمراء، أنا مهووس بك، لم يتبقَ إلا أنتِ» صفعته مرة أخرى دون أن أسمع صوتاً، ضحك ضحكةَ خشنة «الأموات لا يؤلمون عزيزتي» أقترب منّي شابٌ طويلٌ وهو يردد بصوتٍ متقطعٍ: «أتمنى.. أتمنى أن تعذرني فهذا ما طلبه المدير» وما زال يتكلّمُ حتى امسكه القصابُ من رقبته؛ فسمعتُ طقطقة عظامه وهي تتكسر، مر وجهها كمزنةٍ مثقلةٍ بالحياةِ على ارضٍ جدباءٍ فأينع الحلمُ بقلبي، لم يكن وجهها واضحاً، تمنّيتُ أن أراه مرة أخرى، صرختْ بوجهي: كفاك أمنيات... كانت تلك العجوز النصف غريقة، يا الله... سأموت...
وجاء الصباحُ...
الهدوءُ يجعل من صراخِ المعذبين مشنقة للحياةِ، بعضهم يتلفظ أنفاسه الأخيرة، وبعضهم يتمنى أن يتلفظها من هولِ الألمِ، عويلهم يهز جذعَ الشمسِ فتتساقط دموع الكواكبِ ويلتاذ الضوء خائفاً منكسراً خلف غيومِ الجبنِ والتقيةِ.
الشمس ليست من حقِ المساجين لذلك لم أذق شروقها إلا حين أصابنا خيطٌ من الدفءِ، عندما علمتُ أن الليلةَ انقضتْ، تساءلتُ عن صمودي ليلة أخرى، لكن سرعان ما دخل مأمورُ السجنِ، وأمرني بالذهابِ معه، وقبل أن أذهب امسكني كمال

من يساري وسألني
. موسى انت شنو تهمتك؟
. القتل
تعجب مما قلته ثم ضحك معتقدا أنني أمازحه، وضع ورقةً في يميني ممرراً لي عبارته كما يمرر الطلابُ الغش لزميلاتهم:
«روح لهذا العنوان وكلهم أنت من طرفي»
جرني المأمورُ كما يجر خروفُ العيدِ على ارضٍ تختلط فيها لعب الأطفالِ بلحظاته الأخيرةِ، كنتُ خروفاً مطيعاً ومقتنعاً بالموتِ من اجل أحياءٍ شعائرهم فلماذا جعل ركبتي تشتعل دماً بعد احتكاكها بأرضيةِ السجنِ الخشنةِ.
وصلتُ مكتبَ الضابطِ، كان وجهه برونزياً بعينين غائرتين، وأنف بابلي جعله يبدو كصورةٍ في غرفةِ ضابطٍ أحيل على التقاعدِ، يشكل شاربه نصفَ دائرةٍ رأسها للأسفلِ ليمنحه وجه عسكرياً شديداً، أنتفض قائما:
. لم قتلتَ العجوز؟ أنا أعلم أنك قتلته... قسماً بشرفي أنت قتلته.
تتمايل مشنقتي من سقفِ الغرفةِ كراقصةٍ عاريةٍ تبحث عن شريكٍ جامحٍ، كرسي خشبي بثلاثةِ أرجلٍ ورابعة معاقة لابد أنهم سيحتاجون له حتى يصلوا رقبتي بشفاه قاتلتي، فكرتُ في أخباره بأمرِ الرجلِ الذي أخذ ما كُنز لي، تراجعتُ عن تفكيري بأن لا فائدة من ذلك فأنا ميتٌ في كلِّ الأحوال.
. نعم سيدي أنا قتلته. اطرق رأسه مصغياً فسكتُ.
. أنت تعترف الآن. قهقه بصوتٍ مرتفعٍ» قسما بشرفي كنتُ

متأكد أنك قتلته»
رجع لكرسيه وكأنه تذكر شيئاً مهماً، أخرج تقريراً مختوماً باللونِ الأحمرَ «الطب العدلي يقول أنه مات أثر جلطة دماغية! ويؤكد أن الطعنة جاءت بعد الوفاة بعدة دقائق كما أنها قويةٌ ولا يمكن أن تكون لطفلٍ!»
. بالطبع
. بالطبع ماذا؟ ألم تعترف منذ قليل أنك قتلته؟
. بالطبع اعترفتُ
. أنت تضحك علي ولك، افرغ المسدس براسك إذا ما تحجي.
. لقد أقسمتَ بشرفك أنا قتلته فاعترفتُ لكي اثبت أن لك شرفاً فقط، سيدي... يزعجني أن لا يكون للشرطةِ شرفٌ في بلدي.
. أتعلم شيئاً
أخرج سيجارة لم أرَ مثلها، بحث عن ولاعته في جرار المكتب، كانت الولاعة أمامه، أخبرته بذلك فابتسم وأكمل
«يمكنني إحراق التقرير وتقديمك لمحكمةٍ قاضيها نديمي في الشربِ وأهم ما في الأمر أنني سأكون سعيداً جدا بنهايتك»
طُرق البابُ
. ادخل
. سيدي هاي ابنية تريد تقابلك
. لك ما تشوفني مشغول بهالكفرة، أمشي ولي ومن اخلص دخلها
. أمرك سيدي بس هي تگول انا اقاربه والموضوع مستعجل
. اقاربي؟ شو خليها تدخل

دخلتْ وخرج كل شيء من المكتب ليمتلئ بأنوثتها فقط
«خير خويه تفضلي»
اقتربتْ من كرسيه وانحنتْ قليلاً همستْ بأذنه
. كلشي تريده يصير...
. كلشي؟
. كلشي وزيادة، بس عندي طلب
. وشنو طلبك؟
. هذا المسكين يطلع
. هذا مسكين! هذا قاتل. هدأ وكأنه تذكر عرضها قبل قليل
. طلع هالطفل هذا وأنا القي القبض على الأكبر منه.
ارتسم الفراش بعينيه فابتسم بوجهها:
. استريحي
صاح على الحرسِ أمرهم بتشغيل السيارة، توسعتْ عيناه وهي مثبتة نحوي، قام ووجهه يحمل تلك الابتسامة البغيضة، تلك الابتسامة المرسومة على وجوه المصارعين إذا اسقطوا خصومهم، تلك الابتسامة المرسومة على اللحايا والسكاكين!
اقترب منّي، وضعتُ يدي على رأسي فليس لهما فائدة أخرى، بدأتْ الأرضُ تدور بي، والدم يرسم أبشع لوحةٍ على ملامح وجهي الخائف، تعبتْ يداه فركلني على صدري شعرتُ أن أضلاعي تتكسر، محاولة التنفس تؤلمني كمحاولةِ إعادة العظام لمكانها، ثم صرخ بشيءٍ لم أسمعه ولكنني سمعتُ أصوات السياراتِ عندما حملني الشرطي والقاني في الشارعِ كما تلقي العجائزُ

أكياسَ القمامةِ في الأماكنِ غير المخصصة لها ـ الحمد لله ـ أنماز عن القمامة بأن الشارعَ مخصصٌ لي.
شعرتُ بالعطشِ فجأة
اشتهيتُ الخبزَ الحار
اشتهيتُ ذلك الحضن الأسمر
استسلمتُ...
سقطتُ...
تؤلمني ضرباتها القوية عل خدي، أسمعها تدعي بدموعها ويتصاعد نشيجها، فتحتُ عيني فرحتْ كثيرا، أصرت على إنزالي معها، طمأنها المضمد بأن ليس هنالك ما يدعو للخوف» هبوط ضغط لا أكثر ولا أقل بس الظاهر جان واكف يمشط وما يدري بروحه من وكَع على المراية»
طبختْ لي فخذَ دجاجٍ كانت تحتفظ به لضيفٍ محتملٍ، أطعمتني بيدها المرتجفة، كان الطعامُ ألذ بكثير، لا أشعر بيدي مطلقا؛ ربما بسبب التخدير الموضعي، قضيتُ النهارَ معها وفي الليل ساعدتني على الوصولِ إلى غرفتي التي بدأتُ أخاف منها ومن رسائلها.

ر

. هلووووو
إذا كان لملكِ الموتِ جناحٌ فلابد أن تكون هذه الرسالة ريشة سقطتْ منه، رسالةٌ بذرتْ الحيرةَ في قلبي فأنبتتْ سبعين ألف سؤالٍ في كلِّ سؤالٍ ألف سؤال، كان أولها بماذا أجيب؟ فكلماتُ الترحيب كثيرة ومعانيها أكثر، أردتُ أن أكون أكثر اتزاناً فكتبتُ (السلام عليكم)
لكن أصابعي ركضتْ لتمزق معاهدةَ سلامٍ موقعةً من طرفٍ واحدٍ؛ فعن أيِّ سلامٍ أتحدث والخطر يحدق لي بألفِ عينٍ، لا أريد أن أكون كاذباً من البداية، أخذتُ رأيي في (مرحبا) فوجدتُ استعمالَ هكذا كلمة بعد منتصفِ الليلِ قد يدل على كوني عربياً جداً، كما أنني ومذ أول لحظةٍ استبعدتُ الكلمات التي تقال في اللقاءِ وفي الوداع.
. هلو
إذن هذا ما كتبته
بضع ثوانٍ ثم تجيب
. هذا ما اخترته ههههههههاي
أردت الارتماءَ بحضنِ كلماتها والتوسلَ لها أن لا تزيدني حيرةً،

فمن أين لها أن تعرف بأني فكرتُ كثيراً قبل أن أجيب، هل هي فراسةٌ ورثتها عن عروبتها؟ أتومئ الحروفُ فينكشف ما خلفها؟ هل تغيرتْ ملامح رسالتي؟ هل خجلتْ أمامها؟ هل بان ترددها؟

- بل هذا ما اختارني.
- أنت اختيارٌ جيدٌ.

تصحب كلماتها موسيقى تمنحها شبهاً بما يخرج من بين شفتي السماء وهي ترشد أنصاف الآلهةِ لكن الفرق بينهما أنها لا ترشدني، حاولتُ تلمسَ طرفٍ لبدايةٍ فقلتُ:

- الجيد هو ذوق من اختارني.

ضحكةٌ الكترونيةٌ قصيرةٌ أرفقتها:

- لا تحاول، فأعلى مرتبة في الذكاءِ هي نفسها أعلى مرتبة في الألمِ.

متى سأتكلم؟ متى أخبرها من أنا؟ لدي الكثير عني لأحكيه...

استمرتْ:

«أعلم أنك مختلف»

وهنا فز العرق الرجولي وجزم بمقاطعتها، لا يحق لها أن تمنعي من الكلامِ، ماذا لو ذهبتْ دون سماعي؟

- شكراً

هذا كلّ ما كتبته؟

هذا ما أردتَ قوله؟

قاطعتَ القدر وهو يتلو صحيفةَ حياتك لتقول كلمةً بائسةً فقيرةً مثل شكراً، وما قصتك مع هذه الكلمة التي ترتدي

احتراماً فاجراً؟ ماذا تنتظر؟ أنت أنهيتَ اللقاء، أحرقتَ كلَّ كلمةٍ نضجتْ في مخيلتها، لم يعد هنالك مجال إلا إذا أرادتْ رد الشكر إليك مثلك مثل أي عابر سألته عن الوقت، مثلك مثل أي متطفل نبهها بأن ذرةَ ترابٍ التصقتْ بقميصها فشكرته، أردتُ الاعتذار عن هذه الكلمة!

وهل هنالك مجنون يعتذر عن شكره؟

سكتُ كمن غص بروحه، سكتُ وانتظرتُ... انتظرتُ وقتاً أطول ولا شيء، بقيتُ منتظرا رغم علمي بأن لا مجال للعودةِ؛ فمن يستطيع كسر حاجز الشكر، والتكلم بمواضيعٍ أكثر تفصيلاً؟

بدأتْ الشمسُ تعزف على ناي طلوعها؛ فاقشعرتْ العصافير، وابتسم الندى مغرداً على خدودِ بلورة شباكٍ عاجزٍ صفق لذهاب الليلِ وبدأ يتناول خيوطَ الشمسِ المحببة إليه والمتسربة من خلالِ كسوره التي لا تشفى، مسكينة هي نوافذنا؛ جروحها هويتها كما نحن.

ارتديتُ بعض النشاط، وشربتُ فنجاناً من الرغبةِ الدافئةِ، وخرجتُ كما تخرج العقارب من ظهور أمهاتها، ذهبتُ دون أن أفكر أين اذهب، الشوارع فارغة والناس، أسمع خطاي وهذا يعجبني، لما وصلتُ... علمتُ أنني أتيتُ النهرَ، فهو الوحيد الذي ينتظرك في مثل هذا الوقت، نظرتُ إليه بعمقٍ؛ فأمطر حزناً في مخيلتي.

آه... آه...

كأن دجلة أخلفتْ موعدها للمرة الألف.

خامل يسير في بطءٍ بينه وبين التوقفِ فقدانِ موعدِ آخرَ، حاولتُ أن ابدأ حديثاً معه، لم يلتفت لي مطلقاً، يبدو في مزاجٍ سيءٍ، تركته وسقتُ قدمي إلى الرصيفِ؛ فما زلتُ أعتقد أنّه ملهى الفضاء، هو الفنان الأوحد ومنه سرق الرسامون قصائدهم الملونة والشعراء لوحاتهم المكتوبة.

وصلتْ الشمسُ إلى منتصفِ طريقها وأنا اسرح النظرَ في الفراغِ الكائن بين الأرضِ والسماءِ، أنرتُ شعلةَ البنفسجِ لملءِ هذا الفراغ ولتكون صباحاً إضافياً، سكرتُ مع الكلمات...

«يا طعم»

«يا ليلة من ليل البنفسج»

«يا حلم»

«يمامش بمامش»

بدأتْ أصابعُ الشمسِ تدلكنني بخشونتها الريفيةِ؛ فاستيقظتُ مترنحاً من خمرةِ البنفسجِ، ما أن فتحتُ مسامعي حتى استقبلتْ:

«الله اكبر... الله اكبر»

إنّه الأذان، أذان يوم الجمعة وما زالت البنفسج تكرر نفسها

«حي على الصلاة... حي على الصلاة»

وهناك

«ترخص وأغليك وأحبك»

للحظة أدركتُ بأنها حرب الاختيار، بعد تلك اللحظة اتضح أن إدراكي خاطئ وأن البنفسج أذان للعاشقين أيضاً. استسلمتُ لرائحة السجودِ، وسرتُ مسرمداً بين الناس، مظهر جميل، كلهم يرتدون البياض ويسيرون كسربٍ من الغيومِ إلا أنا؛ فقد

غردتْ خطاي بعيداً عنهم؛ لأن الغيوم البيضاء إذا اجتمعتْ، والتقتْ في مكانٍ واحد، تحولتْ إلى سحابة سوداء تتلفظ اخشن الحروف، وتقتل أجمل الأزهار، وهذا ما حصل حينما اعتلى أحدهم المنبر، وأخذ يسقيهم الرعب؛ لينبت الخوف في قلوبهم، ومع ذلك كانت نواياهم مبعثرة، بين ضجيجِ الدنيا وسكونِ الآخرةِ، وقفتُ للصلاةِ دون وضوءٍ، ليس لأنني طاهرٌ إلى هذا الحد، بل لأنني متأكد أن صلاة خلف شيخٍ رأيته يضرب أمه بمسبحته الطويلة لا يمكن أن يتقبلها الله.

انتهتْ صلاتهم ولم تبدأ صلاتي! كلّ طوى سجادته المعطرة وامسكها بإحكام كأنها معاملةٌ لطلب وضيفةٍ، ذهبوا وبقيتُ جالساً محدقاً إلى السماءِ سائلاً الله»أهذا ما بعثتَ نبيك لأجله؟» «بضع ركعات وسجادة معطرة؟» «وبماذا تختلف عن باقي الآلهة إن كان هذا طلبك؟» وبماذا نختلف عن باقي الأديان إن كان هذا ديننا؟ ألقيتُ أسئلتي كصنارةٍ في شارعٍ معبدٍ ولم احصل على جوابٍ لذلك نهضتُ منزعجاً وبقيتُ واقفاً في مسيري...

هل ارتد لدينِ البنفسجِ؟ أم أرتد عنه؟

الوقت يمر بسرعةٍ ولا تشعر حتى يفاجئك أذانٌ آخر، لم ارغب بالذهابِ حتى خطر في بالي أنني سأجد الإجابة هناك.

كان الصوت ينبع من بين محلاتٍ صغيرةٍ ونساء يجلسن على الرصيفِ وأمامهن بعض الخردواتِ المنزليةِ وملابس مستعملة، أيعقل أن يختار الله بيته في منطقة صاخبة مثل هذه؟ شارعٌ يسوده الفقر، الجميع يحمل شيئاً يريد بيعه، لا يهتمون لنداءِ الصلاةِ وكأنهم لا يسمعون، كأنهم يكرهونها. لم أتوقع ما سأجده

إذ كان قصرا! وهل يمكن لله أن يسكن في قصرٍ تطل نوافذه على مجاعة لا تنتهي؟ دخلته ومعي تساؤلات كثيرة فحتى مظهر المصلين لا ينبأ بأنهم يستمتعون بصلاتهم، كأنهم مجبورون على ذلك
يشبهون الباعة في الخارج!

وأنا في المدرسةِ اعتدتُ الجلوسَ في الصفِ الأخيرِ؛ لأن الجالس هناك لا يفكر فيما يحدث خلفه ويعرف ما يحدث أمامه، الجدار ينظر إلي بعينيه الملتهبتين، المراوح السقفية بدتْ غريبة عندما أشارتْ إلي بأصابعها الثلاث، لحية طويلة تجلس إلى جانبي وتسرق النظر كما يفعل رجلٌ متزوجٌ يمشي مع زوجته إذا مرتْ بجانبه فتاةٌ جميلةٌ، بعضهم استغل الفتحة بين رجليه في وضعية الركوع ليزعجني بنظرةٍ إضافيةٍ، من المضحكِ أن تكون سبباً في تمزيقِ صلاةِ مسجدٍ كاملٍ، ما أن انتهتْ الصلاة حتى أعلن المنبر أنني كافرٌ، تعجبتُ كيف يمكن أن أكون كافرا وقد عبدتُ الله مرتين في ظهيرةٍ واحدةٍ؟ كيف يمكن أن أكون كافرا وأنا أصلي معكم الآن؟ إذن لابد أن تكونوا كفاراً أيضاً!
رجعتُ إلى البيتِ مستقلاً حافلة ليس فيها راكب إلا أنا، وسائق يضحك ضحكات خفيفة كأنه يعيش في بقايا ذكرى سعيدة، كنت منتبهاً إليه فأبتعد كثيراً عن مكانِ نزولي
«نازل... نازل»
ضحك ضحكة قوية وقال:
«يلا هي بقت عليك»
واستمر في ضحكه لم اسأله ولم ألتفت إليه، أخذتُ الشارعَ

وذهبتُ إلى غرفتي، أخرجتُ سيجارةً من جيبي فخرجتْ معها نقودٌ كنتُ أظنني أعطيتها أجرة للسائقِ، فرحتُ عندما عرفتُ سرَ التفاتاته وكلمته الأخيرة؛ فجميل أن تكون الأسبابُ بسيطةً، وجميل أن تجد التفسيرَ بعد وقتٍ قليلٍ من الحيرةِ.
مارست انتظاري نهاراً كاملاً، والشمس رافضة الغروب كأنها تنتظر شمساً أخرى تنوب عنها، هذا ما عرفته عندما أشرقت شمسي قائلة:
«أما زلتَ تنتظرني؟»
بدأتُ أشعر أنها تراقبني، جلستُ باحترامٍ، كما يجلس الرجالُ على طرفِ طاولةِ الموعدِ منتظرين، متهيئين، مضطرين، أن يختنقوا ببدلاتهم الأنيقة، واستقامة ظهورهم لساعاتٍ؛ حتى يحصلوا على تلك النظرة الأولى التي يطمحون لها
أكملتْ:
. اعتذر لأنني قطعت المحادثة فجأة
أجبتها
. أسألك سؤالا
. ج
. أيهما أسهل القتل فجأة أم التحذير قبل القتل؟
رتبتُ الكلام في مخيلتي اعتماداً على جوابٍ لابد أن يأتي، فمن الطبيعي أن تجيب بأن الموت فجأة أسهل وحينها أقول: إذن يجب أن تُشكرين على قطعك المحادثة، وبالتالي سوف أحصل على إعجاب لابد منه، وسيكون أول انتصارٍ لي بهذه المعركة الكلامية.

ولكن ولأنها هي، ولأنها لا تتكلم كلاماً متوقعاً، قطعتْ الطريق علي وقالت:

. أن لا تموت أسهل بكثير.

. هذا ليس أحد الخيارين!

. نعم أعرف.

. ولماذا اخترتِه؟

. لأن الأول والثاني كانا من اختيارك فلم يتبقَ لي إلا هو.

امرأةٌ ليس كمثلها امرأة، ما تذوقت طعمَ الصمتِ خوفاً إلا معها، كنتُ خائفاً من كلمةٍ تجبرها على وداعٍ آخر ما عدتُ أطيقه، أنا كمن عشق الذئاب، إن أشعل النارَ عليه تحمل مرارة الفراق، وإن أطفأها سيكون وجبةً سهلةً، أكلتني كلماتها، مزقتني حروفها، وليس باستطاعتي إشعال فصاحة اكتسبتها فطرة وعاشرتها دراسة.

. من أنتِ؟

. أنا التي جعلتك تنتظر.

. وهل أعرفك؟

. بعضكَ يعرفني جيدا.

. هل تعرفيني؟

. أكثرُ من نفسكَ.

. اسمكِ؟

. كان جدي يسميني ياقوت، وكانت جدتي تسميني نوارة، فماذا تسميني أنت؟

. رمانة

. رمانة؟ لماذا
. لأنك...
لم أجب...
تاهٌ أنا في سمواتها، أتوسل نجوم الكلمات أن تدلني على طريقِ العودةِ؛ فلم تعد لي القدرة على الاستمرار، لم تعد لي القدرة على المسيرِ في دربٍ لا أعرف بدايته فكيف أعرف نهايته، صرختُ بأعلى صوتي: «أيها القادمون من عتمة الليل، أما أن تتحملوا فضول المصابيح، أو تعودوا من حيث ولدتم، فلا يمكن للحبِ أن يعيش في الظلام»
قالت وكأنها سمعتني:
«وداعاً»
ودعتها كما تودع السنابل أحلامها بالخلودِ، على يد منجلٍ تحمله نفس اليد التي دعتها للحياةِ وللحلمِ، فكثير من الأشياءِ تستدعينا لتقتلنا، كذلك هو الحب في كلّ العصور، ولكن غالباً ما تجد خلودها في خدِ تنورٍ طيني، وكف مبللة بالنقاءِ حيث لا تتوقع، ودعتها واشتقتُ إليها، ودعتها وركضتُ لاهثاً خلف أصوات الحروف الهاربة، ولكنني لم امسك إلا صدري الذي صرح بألمٍ معهودٍ...

ر

لم أصادف إلهاً يسلط نوره علي فتلتئم الجروح، ويزول الألم، ولكنني صادفتُ طفلاً إلهياً، كان مبتسماً بجانبي، هيأته تدل على ثراءٍ عائلته ووجهه يدل على اسمه. اتكأتُ عليه فاستحييتُ من إتلاف قميصه الثمين، ولم يستحِ من حمل حذائي بيده الأخرى بعدما خلعه ليبلل أصابعي بماءٍ جلبه من محل قريبٍ، أخذني لمكانٍ لو لم يكتب صاحبه عليه (صيدلية) لما صدقتُ، ورغم الجهد الذي بذله المضمد إلا أنني لم أرَ العالم كما ينبغي منذ ذلك الحين.

طلب المضمد نقلي للمستشفى بأقربِ وقت فانقدنا لطلبه وذهبنا لنرى ما يمكن عمله مع ملامحي الممزقة. كان جمال محترما رغم صغر سنه فانعكس هذا الاحترام على عملِ الأطباءِ واهتموا بي كثيرا... بعد مرورِ سنة كاملة أخبرني بما أخبره الطبيب عن عملِ قلبي المتلكئ وضرباته غير المنتظمة، حاول يومها أن يخفف علي صعوبة تقبل وجود فتحة في قلبي، لم أحزن، بل زاد شوقي لتلك الفتاة التي ستملؤها.

ما زال جمال ساكتاً وكأنه يستنطق جراحي، كأنه يعرف اللوحة من إطارها.

. أنا لا اعرف كيف أشكرك.
. لا داعي.
. سأذهب الآن.
. إلى أين؟
. لأقاربي.
. طيب لنذهب...
. لا، سأذهب وحدي.
. مو بكيفك.
أشر لسيارةٍ قريبةٍ وهو يسأل السائقَ:
«فارغ عمو؟»
«اي عمي صعدو»
سأله السائق: «وين توصلون» فسألني: «بيا منطقة أقاربك؟»
أخرجتُ الورقة من جيبي وأعطيتها للسائقِ، استغرب الرجل فنادرا ما يفعل الركاب هذا في مدينتنا الصغيرة. وصلنا لشارعٍ مكحلٍ بخطٍ من النخلِ على امتداد البيوتِ، نظر السائق للخلفً وقال: اسأل عن بيتِ أبو كمال. سأله جمال من جديدٍ: «بيت منو؟» لم يجبه، سكتَ منتظراً إغلاق الباب فأجبته أنا «أبو كمال»
. موسى، أنت تعرف أبو كمال؟
. لا
. شلون!
. انا اعرف كمال فقط.
كان البيت الذي وصلنا له يعلو جميع البيوت في هذا الشارع ويبزها في الأناقة والجمال، فتح جمال الباب بصعوبةٍ، ثم فتح باب

الاستقبال ودعاني للدخول، سألته:
. أتعرفهم؟
. نعم اعرف كمال أيضاً. تفضل...
دخلتُ وجلستُ على كرسي ضخمٍ كان مواجهاً للبابِ في حين انشغل جمال بإشعالِ الأضواءِ، والمراوحِ، ثم جلس أمامي وكان الصمت ثالثنا. طرق سكوتنا رجلٌ عجوزٌ بملابس شابةٍ، قميصه المزخرف بعبارات أجنبية وبنطاله القصير يعد بكثيرٍ من المرحِ
«مرحبا يا حلوين»
«بابا موسى من طرف كمال اخوي»
لم يسألني أي سؤالٍ، بل أخذ يقص علينا النكت، والحكايا، والمواقف المضحكة التي تعرض لها أثناء عمله كمندوبٍ لوزارةِ الثقافةِ في أحدى الدول الآسيوية. قاوم فضوله لوقتٍ غير قصير، وبعدها طلب معرفة كلِّ شيءٍ، فرحتُ أصرخ له وضعي، وأسكتُ أحياناً، وأصرخ ساكتاً في أحايين أخرى.

كبرتُ في هذا البيت مع جمال ووالده وصورة كمال المعلقة في الاستقبال، وجود تلك التي كانت كأخينا الثالث أو كأخيه الثاني أو... يا الله لا يمكن أن أتم جملة عنها مع كومة الأحلام التي لا تمحى من ذاكرتي...في كلِّ صباحٍ أشكرُ الله لأنه لا يحاسب على الأحلام.

لم يتأخر والدهم عن إرسال الطعام وكل ما يحتاجه كمال وأصدقاؤه طول مدة الحبس، هو لا يذهب لهم بنفسه لكنه يتأكد من وصولِ كلِّ شيءٍ عن طريق الهاتف. وقبل أن نجلس للغداءِ اتصل بصديقه ليطمأن على كمال فطمأنه وأخبره بأنه

يراه مصلياً الآن، دعانا للأكل مبسملاً، شكلتْ جلستنا مربعا غير متساوي الأضلاع، جود تقابل والدها دائما وأنا وجمال نأكل بصحنٍ واحدٍ.
فُتح الباب فأَلتفت الجميع إليه
«السلام عليكم»
غريبٌ هو الإنسان الذي يغيب عن أحبائه في السجن، والتعذيب فيشتاق لكلّ تفاصيل بيته، ولكلّ كلمة من أهله، وعندما يطلق سراحه يأتي ليرسم تلك الصورة الرجولية ويقول: «السلام عليكم» وكأن الأمر لا يعنيه!
تسابقوا إليه فهذا يقبله، وتلك تشمه، وما أن جلس ليرتاح قليلاً حتى راح الأب يؤنب ابنه على انتمائه لذلك الحزب قائلا:
«تضيع بويه والله تضيع» سكتَ قليلاً ثم أكمل: «أذوله وحوش مراح يترددون بأكل لحمك ولحم الناس كلها إذا زاحمتهم على لكمتهم»
ولكنه صامتٌ، لا يرد! يبتسم فقط، وكأنه لا يسمع، أو لا يفهم! الوالد يتكلّم بلغة العارف، والمجرب، والخائف في نفسِ الوقتِ، ولا أعرف على أي شيءٍ يخاف؟
على ابنه البكر؟
على نفسه؟
على وظيفته المحترمة؟
وظيفته المحترمة...
وظيفته المحترمة... كسروا الباب...
بحثوا عن كمال فلم يجدوه، أخذوا والده وهو يصرخ:

«عوفني أنا مسؤول بالدولة وهاي هويتي»
ولكن الواضح أنهم لا يسمعون الهويات، وبعد أن يأس منهم تحول صراخه:
«موسى سد باب غرفتي وخلي المفتاح عد جود... لحد يفتحها خوش»
الثقبُ الموجودُ في البابِ صغيرٌ جداً، إضافة إلى تبادلنا المكان بخوفٍ، وصمتٍ، ودموعٍ، بقينا وحدنا في هذا البيتِ الواسع، خائفون ولكن فرحين، أول ما فكرنا به هو الذهاب لغرفةِ أبي كمال وأخذ علبةَ السجائر، جلسنا هناك ندخن بمتعةٍ وخوفٍ. غفونا على حزنِ فقدانِ الأبِ، وفرح اكتسابِ الحريةِ، وفي الصباحِ قررنا عدم الذهاب للمدرسةِ بل خرجنا ومعنا ما وجدناه من نقودٍ؛ لنشتري علبة سيجار أخرى... ما أن فتحنا الباب حتى سمعنا صوتاً خافتاً من خلفنا:
«تعالوا وين رايحين؟»
كان كمال مختبئاً في تنورٍ قديمٍ لم يستخدمه أحدٌ منذ موت والدتهم، انتفض كديكٍ، هز رأسه ليسقط ما علق به من التراب والخوف
- وين رايحين؟
- ماكو شي.
- موسى، جمال الوضع خطر لا تطلعون أنا رح أروح لمكان بعيد إذا رجعوا أبوي طمنوا عليه. خوش؟
تلثم بذلك الشماغ المنسدل على كتفه، فتح الباب بهدوء، نظر يميناً وشمالاً، انطلق بعدها راكضا...

رجعنا خائبين لم تتحقق رغبتنا ففي الزمان والمكان الذي يمكننا أن نفعل به ما نشاء من غير حساب تأتينا هذه التعاليم الجادة بعدم الخروج!

استيقظتْ جود للتو وبقايا حلمٍ ممتعٍ تلتصق بملامحها استحييتُ من النظرِ لها؛ لأن علامات الطفولة اختفتْ وبدأ جسمها ينضج، تغيرتْ أفكارها ولم تعد تستلقي بين أحضاني وتقبلني من حيث تشاء، هي ذكيةٌ جداً وجميلةٌ جداً، عيناها السوداوان، وشعرها الأسود، ووجهها المدور كقرصِ شمسٍ يجبرني على النظر لها بتأمل سبق وأن أنتبه له جمال وتظاهر بلا مبالاته.

جاءتْ وهي ترتدي ملابسَ الأولادِ كما تحب أن تفعل، كان البنطلون لأخيها والقميص قميصي القديم، لا أعرف لماذا تحب ارتداء ملابس غيرها؟ ربما تريد أن تكونهم، تجربهم، تختبر حياتهم، تتمايل بمشيتها فتجعلني أفكر أحياناً ثم وبكل إخلاص أتجنب أفكاري العارية.

. أكلكم: بابا وين؟

سكتَ جمال فأخبرتها:

. سافر اليوم من الفجر.

وجهتْ عينها وكأنها تريد أن تقول: «ومن سألك عن أبيك؟»

. تريكَتوا؟

سكتُ؛ فقد يكون السؤال له حصراً، قد تكون صيغة الجمع للاحترام فقط

أجابها:

. لا، يا ريت تسويلنه ريوكَ.

وقبل أن تذهب رميتُ لها مفتاح الغرفة لأنها المعنى البشري للثقة بالنسبة لوالدها، أمسكته بحركة شريرة، نظرتْ لكلينا وذهبت، من الصعب جداً تفسير نظراتها، فعيونها الواسعة تمزج بين الغضب، والارتياح، والمزاح، والجد، والحب، والكره، والكثير... والكثير...
قام جمال وأغلق الباب وبدأ يبحث عن سيجارةٍ شاردةٍ هنا أو هناك ولكن سرعان ما أتت وبدل أن تحمل (جبن العرب) الذي اعتدنا أكله صباحاً جاءتْ تحمل (تكة) السجائر التي كانت بمثابة كنز لنا، لم نحاول إفساد متعة إيجاده بسؤالها من أين أتت به؟
دخنّا ثلاثتنا، ملأ الدخان صدورنا والغرفةً، وللحظة شعرنا بالحاجةِ لشخصٍ ينهرنا ويمنعنا من التدخينِ، لم يكن هنالك سوى حشرجة الصدور، وعيوننا الدامعة...
طلب مني جمال أن أذهب معه لشراءِ الخبزِ
. موسى فدوة أمشي وياي
. لا، روح انت انا راح اسبح
. طيب انطيني بنطلونك اروح بيه
. يعني بس أريد افهم، اذا ملابسنه نفس اللون، ونفس الحجم، ونفس السعر، ونفس الموديل، ليش تلبس بنطلوني؟
كان تساؤلي بعصبيةٍ مضحكةٍ
. لأن اختنا العزيزة ما خلتلي شي البسه
أعطيته البنطلون وبقيتُ بسروالي القصير فقط، خرج وأغلق الباب خلفه، ركضتُ للغرفة وقبل أن أصل وصلتْ لي.
. جود!

. موسى تعال وياي بساع
. شكو
. المفتاح ما يطلع من باب غرفة بابا وخاف يجي ويشوفها مفتوحة ويزعل
. بسيطة لتخافين
كنتُ أظنها حجةً للحديثِ معي لكن عندما وصلنا للغرفةِ كان المفتاحُ عالقاً فعلاً. حاولتُ جاهداً إخراجه ولم استطع، حركته يميناً ويساراً، أغلقته وفتحته أكثر من مرة وما زال عالقاً، كنتُ حذراً معه خوف أن ينكسر داخل الباب، وما زلنا نحاول حتى سمعنا صوت والدها:
«الضابط كلب ابن كلب»
قلتُ بنفسي: أعرف هذا جيدا.
«اكَله أنا مندوب وزاري يكَلي طز بيك وبالوزارة يا عميل»
يضع الشتائم كفواصل بين الكلمات
«ابن الزمال أنا يضربني»
الصوتُ يقترب من الغرفةِ والمفتاح ما زال مصراً على كشف سهرتنا مع الدخان
. جود، خلينا نطلع...
. لا موسى، رح يزعل بابا إذا عرفنه داخلين للغرفة
. جود خل نطلع بساع أفضل ما يشوفنا هنا
. ماشي يلا
فتحتُ البابَ، لم ينفتح، يبدو أننا علقنا مع المفتاح هنا، حاولتُ معه بعنفٍ أكثر ولم ينجح الأمر، دعوتُ الله بكل ما أملك من

أسماء فأنفتح بسرعة. نظر لي متأملاً قطرات العرقِ على جبيني، نظر لها بوجهها المصفر، أرجع نظره لسروالي القصير ثم تحول إلى بنطلونها الجينز الذي ظنه بنطالي لا شك...

. ماذا تفعلون؟

. المف... المفتاح

. أي مفتاح؟

. لم نفعل أي شيء

. ماذا؟ موسى...

لبستُ سروالاً قديماً ثم وضعتُ ما وجدته أمامي من الملابس في حقيبةٍ صغيرةٍ وخرجتُ بدموعي وقبل أن أفتح البابَ فتحه جمال ليراني بهذا المنظر، ألقى كيس الخبز من يده

. شبيك؟

. ماكو شي، أنا رايح

أبعدته عن طريقي بقوة وذهبتُ راكضاً للنهرِ... كلمته كثيرا، أفهمته كل شيء، ساعدته بدموعي على النمو أكثر لكنه لم يصدقني أيضا.

. أنا أصدقك

. من أنتِ؟

رفعتْ السؤال عن وجهها فكانتْ هي... تلك الجميلة التي أخرجتني من السجن

. عرفتني؟

. عرفتُ أنك أنقذتي حياتي لكني لم أعرفك.

. أنوسه.

. وماذا تريدين
. لا شيء غيرك
. لم أفهم
. ستفهم لكن دعنا اولاً نجد لك مكاناً تنام فيه

جلستْ بقربي، أخذتْ يدي، شابكتْ أصابعنا، هي ناعمةٌ جداً حتى شعرتُ أن أصابعي تخترقها، لحظات من الصمت، قامتْ مبتسمة
. يلّا امشي...
. وين؟
لم تكن الأين مهمة بالنسبةِ لي لكني سألتها لأن المشي أصبح صعب بعد أن لمستُ يدها.
. إلى بيتك...
ألبيت كئيب من الخارج وعجوز من الداخلِ! فتحتْ الباب على مهلها... كان الكرسي فارغاً لولا أن تلك العجوز ترتدي كثيرا من الملابسِ
. ها أم انتصار، خير؟
. شونج خالة؟
. كويويجة، شجابج بهالليل؟
. جيتج وما اريدج ترجعيني...
. كَولي؟
. نريد الغرفة الفوكَ لموسى.
نظرتْ العجوز إلي كأنها تقيس الغرفة على جسمي

. ميخالف
قدمتْ مفتاحاً معلقاً بخيط اخضر فأخذتُه وصعدتُ للغرفةِ وحدي، وأنا على الدرجِ صاحتْ أنوسة خلفي «دبر روحك اليوم وباجر أجيبلك كل التحتاجه»

ت

سيجارةٌ كئيبةٌ، وأغنيةٌ رتلتها السنينُ، ونهرٌ؛ هكذا احتفل بعيدِ ميلادي محاولاً حبسَ الدخانِ لأطولِ فترةٍ ممكنةٍ في رئتي فيطاوع القيدَ قليلاً ثم يهرب مؤمناً برحيلٍ لابد منه. لا أحب المجاملاتِ الفارغة، والكلماتِ المتوقعة؛ فكلّ ما يدور في ذهنِ أصدقائك «كلّ عامٍ وأنتَ بألفِ خيرٍ» والمضحكُ أن بعضهم يخطئ فيها أو يتلكأ؛ لذلك أنا في مكاني المعتادِ بين جناحي نصبِ الأماني، هناك مكانٌ يكفي لي مهما كبرتُ، وأكفي له مهما صغر، يعرفني مهما تغيرتُ، وأتلمس ملامحه في عتمةِ الهروبِ، وسرعةِ الجريانِ، واختباءِ ظله بين سعفِ النخيلِ، ومسحاة الفلاحين. أتوسل أمنيتي أن لا تفضحني.

صوتٌ يشير إلى متصلٍ يردد معايدته قبل أن أرد؛ حتى تبدو أكثر مهارة وهي تركض لمسامعي

ـ عيدك مبارك يا أغلى واعز وارق و... و... صفاتٌ لا امتلكها.

ـ شكراً على اهتمامكِ.

بدأتْ حفلةُ التعبيرِ عن المشاعرِ دون أيِّ توريةٍ وبكلِّ بساطةٍ:

ـ أنا كلّ إلي أتمناه أكون وياك بهذا اليوم.

ـ وأنا كذلك.

في الحقيقةِ كلّ ما أتمناه أن أبقى اليوم وحيداً، لكن لا يمكننك أن تضع صخرةً أمام سفينةِ مشاعرٍ أنتَ ربانها. انتهتْ المكالمة، وضعتُ الهاتفَ وأنا مرهقٌ منه كأنه يزن جبلين وما إن وضعته حتى رنَّ مرةً أخرى.
رسالة...
«سأقول لكَ كلمة تكرهها ولكنك ستحبها منّي وبين قوسين «عيدك مبارك»
لا يعلم أحدٌ بكرهي لكلماتِ الأعيادِ، فهذا أمرٌ غريبٌ قد يمنحك سمعةَ الجنونِ ويمنح زميلاتِ الصفِ أياماً دافئةً في الحديثِ عن غرائبك، سيتهمنك بالتشاؤمِ، وكره الحياةِ وقد يتطور الأمرُ أكثر فتصبح معقداً ومنطوياً على نفسكَ . وأنا أتمنى الانطواءَ على نفسي . وبعد أن تفرغ ألسنتهنَّ يبدأنَّ بتفسيرِ أيِّ تصرفٍ مقصودٍ أو غير مقصود بإلصاقه بتلك الفكرة التي تكونت عنكَ مسبقاً. آه... كم هو ممل الحديث عن حديثِ الناسِ.
كيف علمتْ بأمرٍ لا يعلم به أحدٌ غيري؟ هل أنا عميلٌ يفشي أسراره لخصمه؟ هل بعتني من اجلها؟ ما كلّ هذه الأسئلة التي ترتدي زياً موحداً؟ اتصل... كيف اتصل؟ ماذا أقول إذا سمعتُ صوتها؟ عن أيِّ شيءٍ أتحدث؟ من يضمن لي قدرتي على الصبرِّ وعدم مقاطعةِ الحان القدرِ بكلماتي الناشزِ؟

اتصلتُ... رنَّ الهاتفُ... الهاتفُ يرنُّ، وأنا أتوسلُ السماءَ أن لا تجيب، واتوسلها أن تجيب أيضاً، يا الله، لا أعرف ماذا أطلب منك!
سمعتُ صوتاً... لا تخف ليستْ هي.

موظفةُ الشركةِ تقول: «المشترك لا يرد، يرجى الاتصالُ في وقتٍ لاحقٍ» عاصفةُ خوفٍ هزتْ كلَّ شجيراتِ السكينةِ التي روضتها لهذا اليوم، هربتُ من تفكيري إلى سوقٍ مزدحمٍ وقريبٍ. فكرةٌ رائعةٌ؛ فازدحامُ المارةِ يشغلك عن التفكيرِ قليلاً، وجوهُ العابرين قصائدٌ لم يقرأها أحدٌ. تصفحتُ أنفاسهم، التفاتاتهم نحو الأضواءِ والسلعِ، أمنيات النساء البسيطة، بدا الأمرُ ممتعاً إلى أن رأيتُ وجهها على كأسٍ بلوري لامع فارتعبتُ وهربت من نظراتها فإذا بي أراها في جميعِ الأشياءِ! فكرتُ في الذهابِ إلى البيتِ ولكن ماذا إن وجدتها تنتظرني لتشرب معي كوناً من السهرِ المرِّ؟ لم لا أرسل لها رسالة؟ عندما لمعتْ هذه الفكرةُ في بالي فخرتُ بنفسي كأني اكتشفتُ اختراعاً عظيماً، شعرتُ بأنني عالمٌ عبقري فقط لأنني فكرتُ بإرسالِ رسالة لها؛ فبالنظرِ لاستعدادي العقلي في تلك اللحظة يعد هذا انجازاً هائلاً، إلا أنه لكلِّ اختراعٍ مشكلةٌ ومشكلتي الآن ماذا سأكتب فيها؟ وأي الحروف سأختار؟ وكيف أضع بساتين مشاعري في قشرِ عبارةٍ قصيرةٍ؟ تشجعتُ كجندي سمع أغنيةً وطنية فرضي بالموتِ على أنغامها.
كتبتُ لها:
. من أيِّ سماءٍ سقطتْ نجمتك علينا؟
كان يجب أن أقول لها: (فدوه أروحلك خلصيني من عذابي)، كان يجب أن أقول الحقيقةَ بدلاً من تكلّفِ عباراتٍ واصطناعِ ألفاظٍ ليستْ لي، ولا تعنيني، ولا تمسني، الآن في مثل هذا الوقت كان يجب أن أتوسل بشدة.
ما إن أرسلتُ رسالتي حتى تضايقتُ من انتظارٍ قادمٍ توقعته

ولكن الأمرَ لم يطلْ، لحظات وتجيب:
ـ إن لم تعجبك نجمتي فيمكنك إرجاعها وببساطة
يا سيدتي، كيف تكفيك بضع ثوانٍ لتردي علي رداً صاعقاً مثل هذا؟ وأنا الذي كان يحسب الرسالةَ اختراعاً، وأن كتابةَ حرفين لكِ تعادل مشقة كتابة رواية، وما الذي لا يعجبني؟ وكيف أرجعه؟ وإذا أرجعته كيف يكون الأمر ببساطةٍ؟ استغرقتُ خمس دقائقٍ لأكتب رداً لها.
خمس دقائق؟ اكتشفتُ أن الساعةَ آلةٌ سطحيةٌ؛ فهي لا تميز بين الأوقات، وتسير دائماً في حين إن الوقتَ يتوقف كثيراً، الساعة لا تعني الوقت، فليلة نائمة بين أحضانِ الحبيبِ ليست إلا ثانية، وثانية وأنت تقارع سيوف الانتظار قد تكون عمراً كاملاً وقد تهرم خلالها وقد تموت...
كتبتُ لها:
ـ لابد أن نعرف مكان الشيء لنعيده؛ فمن أيِّ كوكبٍ أنت يا سيدتي؟
مرةً أخرى وبسرعة أكبر
ـ أنا من كوكبك.
وتأخرتُ أنا حتى كتبتُ:
ـ في أيِّ كتابٍ تختبئين؟
ـ ربما أكون الصفحةَ الأولى من حياتك وربما أكون الصفحةَ الأخيرة.
ـ هل لي أن اقرأ صفحتي؟
ـ أنت تقرأها كلّ صباح.

. أتمنى أن تراعين فهمي وتوضحين أكثر . وبالفعل هذا ما تمنيته .
. أنت لا تحتاج لشرحٍ، الأمرُ بسيطٌ، تقرأها بدونِ تمعنٍ.
ما قرأتُ شيئاً إلا وتمعنتُ به، لا أترك حرفاً دون فهمه، على الأقل بطريقتي، فهل يعقل أن لا أتمعن بكتابِ حياتي. لا أعرف ماذا أكتب بعد، عن ماذا أتحدث، سكتُ قليلاً فأضرمتْ نارَ الوداعِ حينما قالت: «وداعاً» وإيقونة غامزة تلحقها «سوف نتحدث كثيرا»
. انتظرك...
أحياناً احتاج تنفسها بشدة، وأحياناً أقنع نفسي بأنني لا انتظرها فابذل كلّ جهدي في تقمصِ دورِ القطارِ إلا أن تصرفاتي تشي بذاك الراكب الذي لا يعرف موعد رحلته، ولا يعرف وجهتها، ولو كان مغفلاً مثل ما تصوره الأفلام، لتمكن من السؤالِ ببساطةٍ، ولكن الخوفَ من أن يحسبه الناسُ غبياً جعله غبياً دائماً، واضطر لمعانقةِ جميعِ المواعيدِ دون أن يعرف موعده.

عندما يملأني الفراغُ وأنا في اشدِ انشغالي أتوق إلى معانٍ لست أعرفها، أحاول أن أرسم لها صورةً في مخيلتي علّي أطفئ لهيبَ أشواقي ولكنها تظهر بوجهٍ مختلفٍ في كلِّ محاولةٍ، حتى أنها ارتدتْ ملامحَ أمي في أحدى المرات...

بات الإرهاقُ يهددني جدياً، وبدأت أعراضُ الشوقِ تظهر على وجهي وجسمي الذي نحل، فحين لا يجد الشوقُ من يرويه يتغذى على صاحبه ولأنني صديقه المقرب كان أكثر تمادياً على ملامحي وما كان لي إلا أن أكتب (أنا عطشانك) وأبعثها نبياً يهدي صوتها ليكسر كلّ أصنام البعد ويدخل في دينِ وصالي.

وعدتُ اسأل: هل بلغ النبي رسالته بنجاحٍ ولما يدخل العشق في قلوبهم؟
أم أنه صلب في متاهاتِ النسيانِ؟
أم... لم أكمل تفكيري حتى أذن الهاتف معلنا صوتاً دائماً ما كنت انتظره ولكن ليس الآن، لم يكن هذا وقتها، أنا دائماً كنتُ لكِ فامنحيني بعض الوقت لأكون لي أو لها، اعذريني قليلاً، لن أرد... لن ارد... لن ارد...
. حبيبي قلقت عليك ليش مترد؟
. لا داعي للقلقِ.
. أنا بس ردت أَكَلك أنا مشتاقتلك وراح اطلع للسوكَ لأن باجر دوام.
كعادتها تطلب الإذنَ في كلِّ شيءٍ حتى في تقبيلي إذا خلونا في أحدى الحدائقِ.
. ماشي براحتك.
أحبك، وأموت عليك، وزر الإغلاق هكذا تنتهي المكالماتُ دائما.

كان الجميعُ داخلَ القاعةِ يتلقى محاضرة في بحورِ الشعرِ العربي، لثلاثةِ أعوامٍ وهم يتلقون الدروس، لثلاثةِ أعوامٍ يقرأون تلك الكتب، وهم على هذه الحالة لو جئتهم بعد ثلاثةِ قرونٍ، وثلاثةِ آلافِ محاضرةٍ في الشعرِ لوجدتهم لا يعرفون عن الشاعرِ إلا قبيلته، واسم أبيه، ولا يعرفون عن الشعرِ إلا أن سطره ينقسم شطرين، وأما النثر فسطره لا ينقسم، هذا هو الأدب، انقسام السطرِ وعدمه! لذلك أنا لا احضر هذا الدرس فالفشل مرضٌ

خطيرٌ ومعدٍ، أنا لا احضر لأنني أكره الدرس، وهي لا تحضر لأنها تحبني.
ماذا تغير فيها؟
ليست ملابسها؟
ليس في وجهها؟
ولا مشيتها؟
فماذا يمكن أن يتغير؟ ربما لم تتغير، ربما أصبحتُ أراها في حبيبتي وحينها سأكون خائناً جداً، ولكنني لم افعل.
قالتْ: أنا اعتذر لأنني لم أكن معكَ في عيد ميلادك.
. غير مهم.
. تقبل هديتي البسيطة.
الهدايا المغلفة دائماً ما تخبئ تحت غطائها الوردي الحيرة التي انتابت الشخص ليختار لك هديةً تمثل ذوقه، فالأشياء التي صادفته ولم يخترها تدخل ضمن هديتك. فتحتُ هديتها من دونِ إثارة أو خوف من مفاجأة، فتحتُ هديتها كما افتح محفظتي وأنا أعرف ما فيها، ما عساها أن تهديني غير خاتمٍ، أو ساعةٍ، أو قلادةٍ بحرفها؛ فشواطئ مدينتنا لا تزورها فرائدُ الأشياءِ وإن وجدتْ فلفرائدِ الناسِ فقط وليس لنا. أزلتُ الغلافَ، وفتحتُ العلبةَ، وجدتُ كتاباً صغيراً! من العجائبِ أن أجد كتاباً عند شهلاءَ؛ فهي بالكاد تتقبل كتبنا المنهجية، كان الكتابُ روايةً! زاد العجب أكثر...

شهلاء، يا سيدة الفطرة يا عفوية التفكير، لماذا تزيديني إرهاقاً بهديتك المغلفة حتى بعد فتحها؟ وهل تستطيعين التفكير بشكلٍّ

معقدٍ وأنت تغزلين الصمتَ حين تمر كلماتي لتعري كلَّ مشاعرك فلا تعرفين الردَ لا بالمثلِ، ولا بالشبه، ولا بأيِّ كلمة.

عندما تتغير الأشياءُ من حولك ترتبك تصرفاتك المعتادة؛ لذلك بدأتُ أفكر بكلماتي معها لأنها ربما لا تناسب مستوى التغيير. جلسنا نرتل آياتِ الصمتِ لبضعِ دقائقٍ، الكلّ ينظر لنا من زاويته الخاصة، زملائنا نضج في رأسهم استغراب ما لأننا لم نكن هكذا من قبل. ما تعدى من الساعةِ إلا ربعها حتى جاء أحد الأساتذة يحمل نتائجَ الامتحانِ، لم اهتم كعادتي لأنني متأكدٌ من النجاحِ؛ خاصة وأنا الطالبُ المفضلُ عند هذا الأستاذِ. وما أن أعلن النتائج حتى تدفق سيلُ الفشلِ في أرجاءِ القاعةِ فغرق الجميعُ إلا اثنين أنا وهي، نظرتُ لها متعجباً؛ فهي لم تذق طعمَ النجاحِ في هذه المادةِ التي تعتمد على الثقافةِ العامةِ في اللغةِ العربيةِ، كيف تأخذ درجةً كاملةً وقد كانت الأسئلةُ فوق مستوى الجميع؟ أثنى عليها الأستاذ بكلمات موسيقية أبهرت الطلاب وجعلتهم يتساءلون.

أما أنا، قال لي: «إجابتك ضاعت في زحامِ الأجوبةِ ولذلك ستحسب لك درجة الامتحان القادم»

عندما خرجتُ تبعني صوتُ الأستاذِ: موسى انتظرني في المكتبِ.

الانتظارُ بحد ذاته يرهقني فكيف إذا كان انتظاراً بربطةِ عنقٍ! في مكتبٍ يضج بكآبة المثاليةِ والتقليدِ، وليت أنه يثمر عن عينيها لانتظرتُ العمرَ مستمتعاً، فثمار حصادِ الميلِ لنهاري سيكون طلبَ كتابةِ مقالٍ أو قراءةِ قصيدةٍ أعجبته. جاء معبراً عن انشغاله بكثرة النظر لساعته الرخيصةِ التي تباع على أرصفةِ

المدينةِ بمبلغٍ لا يأخذ إلا قشر من راتبه.
. ما بكَ؟
. لا شيء.
. لولا علمي بحبك لشهلاءَ لقلتُ أنك وقعتَ في الحب.
الحديثُ عن الحبِ وسط اللحايا المزورة يعني انتحارا، ولا أعرف كيف يتجرأ على فرضِ سيادةِ الحياةِ في مقبرةٍ ماتت فيها حتى رائحة البخورِ. سكتَ قليلاً ثم أكمل بحزنٍ: «هل تعلم أنك لم تأخذ أيَّ درجةٍ في هذا الامتحانِ؟»
. نعم، أنتَ أخبرتني أن إجابتي فُقدت.
أخذ يبحث عن كلمةٍ مناسبةٍ، لم يجد، انزل نظره، فتح الجرارَ، أيعقل أنه يحتفظ بكلماته القاسيةِ بجرارِ المكتبِ؟ أخرج ورقةَ إجابتي، مكتوب أعلاها بالخطِ الأحمرَ (صفر) ماذا يعني صفر؟ أتخبرني هذه الورقة الخرقاء إنني فاشلٌ في اختصاصٍ اخترته منذ نعومة أظافري، لم تكن هناك أي درجة تكتب رقماً، أيعقل هذا؟ أخذت أتفحصها، إجابتي للسؤالِ كاملة لا ينقصها حرفٌ، كلمته بصوتٍ دامعٍ:
. ولكن الإجابةَ صحيحةٌ؟
كاد أن يصرخ بي غضباً... تبسم
. أتمنى أن تنتبه لنفسك؛ لأن الأساتذةَ اقترحوا فصلك، وعدوا فعلتك استهزاءً بالجامعةِ كلّها، إلا أنني رأيته إبداعاً من وجهٍ ما فلا تجبرني على تغييرِ رأيي، خذ الورقةَ واذهب أنت مجازٌ اليوم.
هل أنا مصاب في جبهةِ الحربِ حتى يمنحني إجازةً جبريةً؟ ماذا فعلتُ؟ لا زلتُ أعتقد أن إجابتي صحيحةٌ، أمسكتُ الورقةَ

وتفحصتها كعجوزٍ تعد نقودها، ورحتُ ادقق ما قلته بما يقوله الكتابُ، السؤالُ الأولُ إجابة كاملة، السؤالُ الثاني قصيدةٌ لم أسمعها من قبل، راجعتُ منطوقَ السؤالِ مطلوب فيه كتابة قصيدة غزلٍ من العهدِ العباسي، فطفقتُ أركض بين أودية القصائد وشعرائها، لم أجد أيَّ مخيلة عباسية تنطق بهذه الألفاظ المرسومة في ورقةٍ يفترض أن أكون كاتبها، وكيف لشاعرٍ عباسي أن يكتب قصيدةَ شعرٍ عراقيةً شعبيةً؟ هل قفز هذا الشاعرُ حائطَ الزمنِ؛ ليتسلل إلى شعبيتنا ويعشقك في قصيدةٍ كادت أن تدمر مستقبلي؟ قرأت القصيدةَ، فقرأتها، ثم قرأتها؛ لاحظت أن لغتها واضحةٌ ولكن معانيها عميقةٌ، حتى وإن وصل بي الجنون إلى كتابةِ قصيدةٍ شعبيةٍ ليقرأها أساتذةٌ يكرهون الشعرَ الشعبي كما يكره الطفلُ قاتلَ أبيه فكيف استطعت تغيير لغتي الشعرية؟ أنا متأكد أنني لا أكتب بهذا الأسلوب ولكن الخط خطي، وتلك الورقة المقطوفة من أوراقها تفاؤلاً بأنها تجلب ألحظ ورقتي.

مدري منّين...
مدري من يا طير أسمعك
وين حطيت عل يا مزنة غنتلك مطرها
السمه الوردية ما تشرب كحلنا
الظلمة مخلوقة عل كَدك... صدكَ وحدك... بس كَمرها...

ي

بدأ يومٌ آخر، الجو حزينٌ وقلِقٌ، عيناي كشفاهِ عروسٍ من حمرةِ السهرِ، ارتعبتُ من منظري عندما أخبرتني به المرآةُ. وقفتُ أمامها في ذلك المكان الذي اعتاد علينا فقالتْ:

. ما بكَ؟

تعابيرُ وجهها مرتبكة من مظهري

. لا شيء، إنه السهرُ.

. ولمَ؟

. قلتُ لكِ لا شيء.

حاولتْ عيناي الهروبَ من نظرتها... نظرتُ إلى الحائطِ، وجدتُ قوسين بينهما (أنا أراك). كثيرةٌ هي العباراتُ التي تخط على الجدرانِ، اغلبها ذكرى سعيدة، أو بيت شعر، اعتدنا أن نراها أينما ذهبنا؛ كأنها جزءٌ من ثقافتنا لا يمكن الاستغناءِ عنه، لكن أحداً لم يكتب رسالةً مباشرةً!

كيف علمتْ أنني سأقف هنا في هذا المكانِ دون المساحاتِ الأخرى بالضبطِ مجاوراً لعبارتها؟ وكيف عرفتْ أنني سألتفتُ واقرأ ما كتبته؟

ازدحامُ الطلبةِ، والتفاتاتهم يجعلك تشك في الجميعِ، من يا ترى؟

إلى أي ملامحِ تنتمي هذه المرأة الأثيرية؟ تحت أيِّ وجهٍ تتلبد؟ لو عرفتها لصرختُ فيها كفاكِ ظلماً فأنا أحبكِ، أو أكرهكِ! غير مهم، المهم أن أصرخ في وجهها فقط.

تركتُ حبيبتي تتكلم وسرتُ على عيني أبحث عنها، أخرجتُ قلمي وكتبتُ على الحائطِ (أنا أيضاً) انطلقتْ شفتي تجاه ابتسامةٍ غريبةٍ؛ عندما خلتُ أن رسالتي ستربكها قليلاً لكنها سرعان ما عادتْ لمكانها مدركةً أن كذبتي مفضوحةٌ مع كلِّ هذه الحيرةِ البينةِ في خطاي ونظراتي، وعندما رجعتُ لوعيي وجدتُ شهلاءَ تنتظرني مبتسمةً، لم اسألها عن السببِ! ولِمَ اسألها؟ فالابتسامة لا تحتاج سؤالاً، بل تحتاج لألفِ سؤالٍ ولكنني لم اسألها... ولِمَ اسألها؟

كان ذلك اليومُ مختصراً جداً إذ لا ظهيرة فيه، فبعد شروقِ الشمسِ بساعاتٍ جاء الظلامُ كزوجٍ راجعٍ من سفرٍ بعيدٍ، غطى المدينةَ أو غطى غرفتي، لا فرق فأنا لم أخرج منذ رجوعي.

عيناي تحدقان في زرقةِ الشاشةِ كظمآن يستسقي سماءً الكترونيةً هي ربها الأرحم، ثم وبعد أن سيطر اليأسُ عليّ أغلقتُ العا لَمَ الذي التقيتها فيه، وذهبتُ لارتاح قليلاً من وجعِ الانتظارِ، ثم استعد ليومٍ آخرَ.

ساعاتٌ وأنا أحاول النومَ دون جدوى، رن الهاتفُ معلناً رسالتها: «اشتقتُ لشخصٍ كان ينتظرني»

عندما تعجز تماماً تولد على شفاهك كلماتٍ بسيطةٍ إلى حدِ السذاجةِ، فأعظمُ ما أنتجته قريحتي في تلك اللحظة «وأنا أكثر» نعم، وأنا أكثر هذه هي الكلمةُ الوحيدةُ التي أنا متأكدٌ منها...

صرخاتُ الأرضِ من ضربةِ عصاها توقظني قبل أن تحاول هي ذلك «يلّا اتأخرتْ كل هذا نوم؟» كنتُ أتمنى أن كلَّ هذا نومٌ؛ فليس الأمرُ كذلك، ليس الأمرُ كذلك يا سيدتي ولكن من سيخبرك؟ لم اكلمها، قبلتُ رأسها، ارتديتُ ملابسي، حاولتُ أن أكل شيئاً، مسكتُ خبزةً منسيةً من يومِ أمس، قضمتها بهدوءٍ واحترامٍ، شربتُ بعضَ الشاي دون أن اصدر ذلك الصوتَ الذي تعزفه شفاه السمارِ إذا اجتمعوا لشربِ الشاي وتفاصيل حياةِ الآخرين، ذلك الصوتُ الذي يجسد اللذةَ والمتعةَ، ذلك الصوتُ الذي تكرهه الفتياتُ ويعشقه رجالُ مدينتي. شربته بهدوءٍ واحترامٍ، بدأتُ احترم نفسي، لا أعرف ما السبب؛ ربما لأنني أشعر أنها تراقبني، كلماتي مع زملائي محسوبةٌ ودقيقةٌ، ابتسامتي ثمينةٌ، بدأتُ أتصرف كسجينٍ أطلقوا سراحه؛ ليدلهم على جريمته وشركائه فتصرف بالعكسِ.

انتهتْ المحاضراتُ، وعزمتُ الذهابَ للبيتِ، وفي الطريقِ صادفني أحدُ الأساتذةِ الذين أحترمهم بشدة ـوهم نوعٌ مهددٌ بالانقراضِ سلمتُ عليه، سألني عن أحوالي، عن دراستي عن... لا أتذكر عن ماذا سألني بعد؛ فكلّ ما أتذكره أن قلمه سقط من يده التي كان يلوح بها، وعندما انحنيتُ لأجلبه احتراماً أذهلني حذاءٌورديُ اللونِ، حذاءٌ فنيٌ جداً، كلوحةٍ، كقصيدةٍ، كطفولةٍ، رفعتُ عيني؛ لأتعرف على صاحبةِ هذا الفن فقبض عليها انزعاجُ الأستاذِ، قال: بالتوفيق... وذهب.

ركضتُ خلف ذلك الحذاءَ، تعثرتُ بكثيرٍ من الأحذيةِ فمنهم من ابتسم، ومنهم من انزعج، لا يهم. وفي الوقت الذي كدتُ

أن أصل إليه سمعتُ صوتاً:

«موسى»

ألتفتُ فإذا بشهلاءَ مستغربةٍ من تصرفي

ـ وين رايح؟

قلبتُ الأعذارَ فوجدتُ أسهلها

ـ للمغاسل راسي يوجعني كلش.

ـ بس المغاسل مو منا ـ مع ابتسامةٍ تقتلني ـ تعال لأدلك عليها الظاهر أنت تعبان هواي.

هي تأخذني إلى طريقٍ، والحذاءُ يناديني إلى طريقٍ آخرَ. افلتُ يدي منها وركضتُ خلفه فوجدتها مرة أخرى!

ـ موسى هاي شبيك؟

ـ لا شيء.

استسلمتُ... أخذتني وجلستْ بي على إحدى المصاطب... صمتٌ مزقته بقولها:

«شفت حذائي الجديد أكيد راح يعجبك»

هو نفسه، كيف ذلك، هو نفسه، الحذاءُ الذي رأيته قبل قليل، رفعتُ رأسي، أمسكتُ وجهها، هي نفسها شهلاء! وهو نفسه! ربما أنا مختلف؟ ربما أنا لست أنا...

وقفتُ... تنفستُ... ذهبتُ...

خطوات لذتُ بها خوفَ الموتِ على طريقِ الاستفهامِ غير أنني نسيتُ التنفسَ اليوم فوصلتُ إلى البيتِ مختنقاً، كلمتني شهلاء، لم أجب، وصلتني رسالة ظننتها منها فلم افتحها إلا بعد ساعةٍ تقريبا.

لم تكن من حبيبتي بل كانت من حبيبتي! مكتوبٌ فيها (أعلم جيداً ما معنى أن تحمر عيونُ الرجلِ) تساقطتْ قطراتٌ من الدمعِ كاعترافٍ بالهزيمةِ، ككلماتِ ما بعد الخسارةِ (إذا كنتِ تعلمين فلماذا كلّ هذا العذاب؟) ما زلتُ أكتب هذه العبارةَ حتى جاءتْ رسالتها الثانية
. تكدر تطير؟
تسألني وتبكيني مرةً أخرى، تسأل جبلاً مربوطاً بتاريخ حجريٍّ، وعلاقاتِ جاذبيةٍ لا تنتهي عن قدرته على الطيرانِ! تسأل فراشةً معاقةً عن مغامراتها مع الأزهارِ! تقص حكايةَ سليمانَ لهدهدٍ مشلولٍ! و بماذا أجيب؟ دائماً ما كانت أسئلتها لا تُجاب، ولكنّني الطالبُ المجتهدُ لا يحق لي أن افشل في أيِّ امتحانٍ، وأن كنتُ فعلتُ ذلك فلن افعله مرةً أخرى.
. بالتأكيد فأنا طائرٌ الآن.
تبرق بسرعةٍ:
. لمَ لا تهبط في مملكتي؟
ـ ربما لأنني لا أعرف العنوانَ.
. أنت تعرفه، وستأتي...
أرسلتُ بعدها الكثيرَ ولم ترد؛ ربما لأنها أحستْ بقلة شجاعتي، ربما لأنها تبحث عن ذلك الطائرِ المغامرِ الذي يرقص بين طلقاتِ الصيادِ وشبكته، ربما لم تجد ما تبحث عنه هنا فقررتْ الرحيل.
هل يحق لها أن ترحل قبل أن تأتي؟
هل يحق للوطنِ أن يهاجر؟
هل يحق للشمسِ أن تجافي سنبلةً تتنفسها؟

هل يحق للنهرِ أن يهرب بحجةِ التغيير؟
جاء ذلك النبيُّ على هيأةِ رسالةٍ الكترونيةٍ ليكتبها بالخطِ العريضِ وبتكرارِ حرفِ الباءِ، ورشاقةِ حرفِ الكافِ بكلِّ ما تحمله الكافُ من شموخٍ، ليكتبها كما تكتب الأقدارُ على جبيننا
(أحببببببك)
هكذا جاءتني
(أحبببببك)
جعلتْ من خمسةِ حروفٍ أحد عشر حرفاً
(ميييييييت) وهكذا كنتُ ميتاً لا يتحرك إلا قلبه وبسرعة شديدة كأنه في مضمارٍ يحاول أن يحصل على مركزه الأول، انتظرتُ تحول هذه الكلمةِ إلى مشنقةٍ، أو تفاحةٍ، أو إي خدعة كنا نراها في الصغرِ، قلبي لا يصدق وعيني تحاول إجباره، وفي داخلي ما ينقصني، ما يخبرني أن هذه الكلمةَ ينقصها حرفٌ ما في حين هي تزيد بستةِ حروفٍ! عجيبٌ ما يحدث الآن، آلاف المشاعر تخالجني في نفس اللحظةِ، جلدي يكاد يحترق من قشعريرته، وصوتي يكاد يصهل من استغرابه، وأنا ممتدٌ على فراشي لا يتحرك لي طرفٌ.
أأرد؟ ذلك يحتاج لقوةٍ إلهيةٍ، يحتاج إلى وحي، ماذا سأكتب؟ ماذا سأقول؟ كيف أجيب شخصاً قال أنه يحبني؟ هذا ليس بالأمرِ العسيرِ لأن صيغةَ سؤالي خاطئةٌ والأصح: كيف أجيب حلماً قال أنه يحبني...؟ أجبتها
. وأنا أكثر
أنا الدغ من جحرِ السذاجةِ مرتين، أنا اعترف بأن هذا جوابٌ

متوقعٌ من طفلٍ، أو من عجوزٍ، أعرف أنه ليس كافياً ولكن هذا كلّ ما امتلكه.

جاء الصباحُ يجر أذيالَ الخيبةِ على طريقٍ بللته دموعُ العشاقِ ولما يجيء ردٌّ على رسالتي... تقبلتُ الأمرَ معترفاً بأنني لا أستحق أيَّ ردٍّ، لم اذهب للدوامِ صباحاً؛ فقد كان لدي موعدٌ في ذلك المتنزه الذي يعتني بأشجاره، ويمد الظلَ؛ ليستر الأحضانَ، والقبلات.

قالتْ:

. شكراً لأنك تحبني أكثر.

. بالتأكيد، لكن من أخبرك بذلك.

. ادري بيك تستحي بس مو لهاي الدرجة يعني مشاعرك ما تطلع إلا بحروف ما يصير تلفظها كدامي

. يا مشاعر؟ شهلاء شبيج؟

قدمتْ لي الهاتفَ كما تقدم القهوةُ لصباحٍ كسولٍ فأمسكته بيدي ثم ساعدتها على حمله بيدي الأخرى، قرأتُ رسالتي مكتوب فيها (وأنا أكثر) صعقتُ ولكن لا وقت للاستغرابِ فالمسألة مسألة حبٍّ أو حياة، مسألة موت أو حب.

ـاها... أتذكرت هذا شي بسيط.

يا رب الرسائلِ، يا اله الحبِ، أيعقل إن تخطأ بالعنوانِ، أيعقل إن ترسل رسالتي إلى غير من أردت، أتتصرف من تلقاءِ نفسك، أيها القدر الغريب من قال إنّي أحبها أكثر؟ من قال إنّي أحبها؟ من أرسل لها رسالتي؟ أخرجتُ هاتفي، تأكدتُ، هي شهلاء من أرسلتْ لي، هي شهلاء من أرسلتُ لها، إذن القدر لم يخطئ

بشيءٍ، أنا من ظنَّ أن الحلمَ يمكن أن يعترف بحبه، أنا من تصور أن القاضي ممكن أن يحكم على نفسه بالسجنِ، أنا من أخطأ، أنا من لم يقرأ اسمَ المرسلِ وقرأ الرسالةَ فقط، أنا من رد على شخصٍ لم يطرق البابَ، أنا من فتح السجنَ ليوسفَ...

ن

. سأذهب الآن وغداً...

. إلى أين؟

. الآن إلى البيتِ، وغداً إلى بغدادَ.

. بس بغداد خطرة!

. مو أخطر منك. مع غمزةٍ واضحةٍ لو مرَّ بجانبي موظفُ الأمنِ لطردني بسببها، ولاحتاجتْ أن تغمز له كي لا يطردها أيضاً.

. ألا تريدين إكمالَ المحاضراتِ؟

. لا، سأذهب وأتحضر للسفر...

ذهبتْ هي وبقيتُ أنا أتتبع خطواتِ المارةِ بحثاً عن قاتلتي، أستنشق عطرها، أتخيل ماذا سترتدي اليوم وكيف سيكون شكلها بالأسودَ؟ كيف تبدو إذا تحنكتْ؟ كيف تبدو إذا أفلتتْ صهيلَ شعرها؟ سعدتُ لفكرةِ غيابِ شهلاء؛ فهذا يُمكنني من التنقلِ بحريةٍ أكبر. وبالفعلِ بدأتْ رحلتي لاكتشافِ العالمِ الذي طالما تعثرتُ به دون أن أعلم أنه المقصودُ، ومن أول كرسي في الحديقةِ إلى آخر سبورةٍ في أحدى القاعاتِ المغلقةِ، ومن آخر قاعةٍ مغلقةٍ إلى الكتبِ المتروكةِ بقرب النوافذِ، ومن أولَ نافذةٍ إلى آخرَ خيطِ شمسٍ، تفحصتُ كلّ شيءٍ ولم أجد لعطرها طلل. بعدما كانت

الجملُ المكتوبةُ على الجدرانِ تحدني أصبحتُ أبحث عنها ولا أجدها. تصفحتُ تاريخ الحبِ في هذا المكانِ، فمنهم من يرسم قلباً يخترقه سهمُ الحبِ، ومنهم من يكتب حرفين يحبان بعضهما. كانت تلك الجدران بمثابةِ نقوشٍ تعود إلى عصورٍ عشقيةٍ معاصرةٍ ولكن الأغبياءَ ما زالوا يستمتعون بتدميرِ الجمال؛ فعندما أمر أحدهم بطلاءِ الكليةِ بلونٍ يثير الاشمئزازَ دمروا حضارةً كبيرةً، وإرثاً عظيماً، كان من الممكنِ أن تكتب له آلاف الأشعارِ، والروايات.

كان تصرفهم مغولياً مع ذاكرة الحب.

صعوبةُ البحثِ متوقعةٌ منّي فليس من الممكنِ أن تتبع آثارَ نسمةٍ حتى وإنْ كانتْ الأرضُ مبللةً بدموعك، وليس من الممكنِ أن تضعَ إصبعك على مكانِ النجمةِ قبل أن تختاره هي. بدا الأمر عسيراً، ورغم مضايقة شهلاء لأحلامي إلا أنها كانت تساعدني دون أن تعرف، كانت تدلني على الطريقِ وتمنعني من الذهاب إليه، بوجودها أكون سجيناً تطل نافذته على عالمٍ وردي، وبغيابها ينفتح باب الزنزانةِ ويختفي ذلك العالمُ، فمعها لا تحصل على الحريةِ إلا حينما تكون أعمى، ومتى ما طاوعتْ قيدها تبجستْ لك ينابيعُ الجمالِ.

قلبتُ وجوه الطلابِ وجه فوجه، بحثتُ في ملامحِ النساءِ والرجالِ؛ ربما لأنها تحمل إصراراً رجولياً على تدميري.

اقرأ تعابيرَ المارةِ، حياتهم، مشاكلهم، من مجردِ نظرة واحدة أعرف أن هذين العينين ليس لها، وهذه الابتسامة لا تليق بقداسةِ وجهها، خطوةٌ واحدةٌ في الطريقِ الصحيح وأعرفها، لكن من أين

لي الحظ فما عشتُ إلا بدونه، لم يتبقَ إلا القليل وأصل اليأس فذهبتُ لأغسل وجهي، أضرب عيني بالماءِ كأنني أريد تنظيفها من الوجوه، والأقنعة، ومساحيق التبرج العالقة بها.

بعضُ الأشخاصِ رؤيتهم عبادة ومن الواجبِ تطهير عيوننا قبل الوقوفِ في محرابِ جمالهم، عندما خرجتُ للشمسِ التقيتها... عيناها ذائبتان في هدوءٍ عميقٍ، يمتد فوقهما خنجرٌ يمني، يتأرجح العالمُ بمشيتها، سترةٌ ورديةٌ فاتحةُ اللونِ كأنها حيكت من صباحٍ نديٍّ، وتنورةٌ تحتضن الربيعَ. ألتفتتْ؛ فأنتشر الوردُ والريحانُ، وقفتْ؛ فخجل النخلُ، ضحكتْ؛ فأستيقظ الرمانُ، غردتْ؛ فملتُ طرباً، ولهاً، مجنوناً، حالماً، سلمتْ على صديقتها:

. مرحبا ريتا

كيف يمكن لريتا أن تصادق الجميعَ بهذه السرعةِ، تمنيتُ لو أنني تحدثت معها كثيراً في ذلك اللقاءِ العابرِ لكنتُ الآن ثالث ثلاثة، أسمعها، وأكلمها، وأتنفسها عن قربٍ.

. هلو رمانة

رمانة! كيف علمتْ؟ من أخبرها؟

كانت ملامحُ ريتا لا تزيد في ارتباكها عن ملامحِ رمانة عندما رأتني وأدركتْ أنني سمعتها، وأنا لم اعد أفهم شيئاً...

عندما ودعتْ ريتا بسرعةٍ حاولتُ اللحاقَ بها فشعرتُ أنني ألاحق منيتي، راقبتها من بعيدٍ، ماذا تفعل؟ أين تذهب؟ كيف تجلس؟ مع من تتحدث؟ هذه أسئلةٌ بسيطةٌ يجاب عليها بعد ساعة، أو ساعتين، والساعة انقضتْ، وانقضى اليوم ولم أعرف لها جواباً؛ فقد كانتْ لا تفعل شيئاً سوى إمساك قلمِ الرصاصِ

وذلك الدفتر الذي حاولتُ مراراً سرقته ومن دون جدوى فيداها لا تفلتانه، كما أنها لا تتحدث مع أحدٍ في الوقتِ الذي كانتْ تتحدث فيه مع الجميعِ! مراقبتي إياها جعلتني لا أعرفها أكثر، خرجتْ فخرجتُ معها واضطررتُ لدفعِ كلّ ما يحمله جيبي للسائقِ حتى يوافق على ملاحقتها، فقد تصورني أخطط لسرقةٍ ما، وبالفعلِ كنتُ اخطط لسرقةِ حقيقةٍ ما.

البيتُ الذي دخلته مخيفٌ لفخامته، اتجهتُ لمحلٍ قريبٍ، اخترعتُ سؤالاً:

. السلامُ عليكم.

. وعليكم. تفضل أمر خدمة؟ رده يبشر بجوابٍ أبحث عنه

. ما تعرف بيت ابو طالب وين؟

. وين وصفولك؟

. ما اذكر بس گالوا يم هذا البيت العالي

. العالي وجه الله . قالها بحسدٍ وكره . هذا بيت الدكتور محمد بس ماكو بيت أبو طالب يمهم.

وما زلتُ واقفاً استجوب الرجلَ حتى فُتح بابُ البيتِ، تركته غير شاكرٍ وتبعتُ تلك المرأةَ المبرقعةَ، هي تمشي بسرعةٍ وأنا اتبعها تاركاً مسافة تبعد الشكَ عنها، اجتازتْ ثلاثَ شوارعٍ ثم وقفتْ أمام بيتٍ لا يليق بوقفتها، لم تطرق الباب، واضحٌ أنّ هذه المرأة على موعدٍ مع أحدهم، لحظاتٌ وخرج شابٌ طويلٌ ببنطلون عريضٍ، وقميصٍ أزرقَ بخطوطٍ بيضاءَ، وقف منحني الظهرِ كأنه متهيئ لاستقبالِ قبلةٍ على جبينه، أبتسم وهو يفتح لها المجالَ للدخولِ، كان نبيلاً بحركته رغم مظهره المتواضع، انتظرتُ

ربعَ ساعةٍ، خرجتْ بعدها وهي تمشي مسرعة، دخلتْ للبيتِ وأغلقتْ البابَ بقوةٍ كأنها تحذره من إفشاءِ سرَ خروجها.

ترى من تلك المرأة؟

ماذا تفعل في بيتِ ذلك الشاب؟

كان يومُ غدٍ يوم عطلة وعندما استيقظتُ متأخراً؛ لأنني نمتُ صباحاً ما أضعتُ إلا الوقت الذي صرفته بارتداءِ ملابسي، وقبل أن أخرج كلفتني العجوزُ بشراءِ موادٍ غذائيةٍ لشهرٍ كاملٍ ولأولَ مرةٍ تسعدني طلباتها وتساعدني. ذهبتُ بشموخٍ إلى صاحبِ ذلك المحلِ، اشتريتُ منه رغم أن السعرَ كان مرتفعاً، لكن لا بأس؛ فقد وطدتُ علاقتي معه وأصبح صديقي تقريباً، حزمتُ أمتعتي وقررتُ الرجوعَ. سائقُ التكسي الأول رفض إيصالي شاكياً من الزحامِ، انتظرتُ سيارةً أخرى فجاءتْ بسائقها العجوزِ الذي توجع وهو يمتد؛ ليفتح البابَ الأمامي لي، أغلقتُ بابَ السيارة، وتركتُ مشترياتي راكضاً خلف المرأة الذاهبة حتماً للبيتِ نفسه، يفتح البابَ الشابُ نفسه، بالابتسامةِ نفسها، ولكن بانحناءٍ أقل هذه المرة، يفسح لها المجالَ كما في المرة الماضيةِ، وقبل أن تدخل زرعتْ قبلةً على خده دون أن ترفع النقابَ! ربعُ ساعةٍ وخرجتْ، للحظة شككتُ بأنها نور، نور تخونني مع هذا الرجلِ الطويلِ، في هذا البيتِ العفنِ، تخونني قبل أن تعرفني، فماذا لو عرفتني؟ ولمَ الانزعاج؟ ألم أخن شهلاء معها؟ ألم أتمنى زوالها من الوجودِ بعدما كنتُ أتمنى زوالَ الوجودِ من دونها، الخيانةُ دينٌ لابد من وفائه عاجلاً أو عاجلاً فلا تأجيل بوفاءِ الدينِ؛ من يخن يُخان.

رجعتُ لأرى ما حل بمشترياتي، وجدتها مبعثرة لا ينقصها شيءٌ،

هذا ليس لأنني أعيش في بلدٍ لا يعرف السرقةَ بل لأن السلعَ المرميةَ في الطرقاتِ كانت سبباً في قتلِ الكثير، حملتها قافلاً شاكراً الموت؛ لأنه يعلم الناس أن لا يقتربوا من ممتلكاتِ الآخرين.

لم أتحمل يوماً آخر لأتأكد من هذه المرأة؛ فذهبت لصاحبِ المحلِ مرة أخرى، استقبلني بحرارةٍ وجيبٍ مفتوحٍ، جر كرسي لي، جلستُ معه، أحدثه عن وجودِ بيتٍ فارغٍ للإيجارِ.

كنتُ أخلق الأسئلةَ لأحوم من خلالها على ما أريد معرفته، قال: «اكو بيوت بالشارع الثالث رخيصة وناسها بسطاء» وأكمل: «شايف هذا بيت الدكتور؟» يسألني ويؤشر بيده راسماً صورةَ حقدٍ دفينٍ، حافظتُ على سكوتي لمنحه راحة أكبر في الحديثِ؛ فكل ما يقوله يهمني، أستمر... أستمر فأنا كالمركبة الفارغةِ من الوقودِ، كان كلامه يملأني شيئاً فشيئاً.

«هذا... هذا طرد أمه العجوز وأخوه...أخوه الي انكسر ظهره وهو يبني بهذا البيت، تاليتها يشمرهم بره ويبقى هو وحضرة زوجته الدكتورة!»

وجدت عندي الجرأة لأسأله عن تلك المرأة ولكن تفاعله مع الموضوعِ لم يدع حاجةً لأي سؤالٍ.

«الله يخلي نور بنته»

هنا... مع أسمها لا بد أن يكون لي كلام:

ـ وشبيها نور؟

ـ تعرفها؟

ـ لا، منين أعرفها. نظر إلي بشكٍ واضحٍ ثم أكمل غير مبالٍ:

ـ نور إبنية طاهرة حتى لو والدها نتن، تدري هاي الابنية تروح

لجدتها بسكتة بسكتة ومن دون ما يدري تنطيها فلوس من مصروفها الخاص، وتأخذ علاج لعمها المكَرود، ومن يكون والدها بالبيت تكلفني أنا أروح بدلها.
نفختُ صدري متفاخراً وكأن نور من صنعي، وكأني أنا الذي أمرتها بفعل ذلك، لم أستطع إخفاءَ فرحتي؛ فأستغرب الرجلُ، أبعدتُ الاستغرابَ عنه بقولي:
. والله نعمة من الله اكو هيج بنات.
. إي كَتلك هاي أبنية طاهرة.
فرحتُ من جديدٍ بكلامه، استأذنتُ منه للأبد فقد عرفتُ كلّ ما احتاجه.
نور طاهرة... ملأت الشارع فرحاً... رمانتي طاهرة...

***

حفلةُ موتٍ لم تتحقق، دعوةٌ لرحلةٍ أبديةٍ لم تُلبَ، السائقُ ذكيٌ جداً، تجنب تلك السيارةَ الغاليةَ الثمنِ، وارتطم بعمودِ كهرباءٍ رخيصٍ، تجنبها تماماً وارتطم بعمودِ الكهرباءِ تماماً، مات هو، وكُسرت ذراعي أنا، غريب أن تكون مع شخصٍ في مركبةٍ واحدةٍ، وعلى طريقٍ واحدٍ، ثم تتعرضان لحادثٍ واحدٍ، فيموت هو وتكسر ذراعك أنت، هذه سخرية الأقدار.
ليس ذكرُ الحادثةِ مهماً بالنسبةِ لي، ليس كسرُ ذراعي التي لم ينشف جرحها بعد مهماً بالنسبةِ لي، وليس موتُ ذلك الرجل الذي تجنب سيارةً واقفةً؛ كي لا يدفع مبلغَ صيانتها فدفع حياته

ثمناً لفعلته، كلّ هذا لا يعني لي سوى كآبة يومٍ أو أقل؛ فسرعان ما يعود العقلُ للتفكيرِ بها متناسيا كلّ ما تعرضتُ له.

الألمُ الذي يبثه جرحُ يدي وكسرها، يروقني جداً، يمنحني بضعَ لحظاتٍ ارتاح فيها من ألمِ الشوقِ، ولكن سرعان ما يزول تاركي وحيداً. كم تمنّيتُ أن يبقى ألمي إلى جانبي، كم تمنّيتُ أن يساعدني بمواجهةِ ألمٍ اكبر.

الإذاعة تفرش الطريق بأخبارٍ لا تطاق، «قُتل عشرون شخصاً في انفجارِ سيارةٍ مفخخةٍ... عمليةٌ انتحارية راح ضحيتها... أغتيل النائب الأسبق في... . النواب الحاليون لا يغتالون عثر على جثةِ طفلٍ محروقة أمام...» وإصرار السائقِ على عدمِ خفضِ الصوتِ أرهقني كثيراً.

«خلينا نعرف الصاير ما صاير تدري اليوم ستة وأربعين شخص استشهد بانفجار واحد ببغداد؟» «أعرف يابه أعرف» شكرتُ ربي؛ لأنني وصلتُ قبل أن يعلن هذا الرجلُ استشهادَ الوطنِ!

قميصي لا يسع يدي الضخمةَ بفعلِ جبيرةِ الجبسِ؛ لذلك اضطررتُ لاستعارةِ قميصٍ يسعها، كان لونه أحمرَ وهذا اللونُ من اشدِّ أعداءِ أصحابِ السلطةِ ومنهم حكام كليتنا، لكنهم تعاطفوا معي هذه المرة، قد يكون السببُ راجعاً إلى القميصِ؛ لكونه قديماً جداً ولا يظهر بهرجةَ الأحمرِ وجماله، أو يكون عائداً على يدي المعلقةِ برقبتي.

رأتني... بكتْ...

هل وصل الحبُ بها إلى هذا الحدِ؟ تنظر إلي وتبكي، ينظرون إلي ويبكون، هل أصبح الجميع يحبني؟ هل أنا اله الحبِ الذي

ينتظرونه ليذرفوا دموعهم الطاهرةَ أمامه. أنا انظر إليها وهي تسرق النظرَ إلي، أنا انظر إليهم وهم يتهامسون بحسراتهم، أنا لا أفهم وهم يفهمون.
هل قرأ أحدهم ما كتبته وعمل نسخةً مجانيةً للجميعِ فتأثروا بكلماتي؟ هل كانتْ كلماتي حزينةَ إلى الحدِ الذي يجعل شخصاً لا أعرفه يربت على كتفي؟ هل كانتْ كلماتي تبين فضائلَ اللونِ الأسودَ لتسود شالات الفتياتِ؟
أخرجتُ هاتفي متظاهراً بانشغالي، وجدتُ رسالةً وصلتني قبل يومين من شهلاء، كنتُ أتوقع أنها تطمئنني بوصولها فلم افتحها، والآن وجدتُ فيها مخبأ أمينا من التفاتاتِ الطلابِ ففتحتها:
(موسى كَلي أحبك)
ضحكتُ، وتجاوزتُ نظراتَ الجميعِ داخلاً لنادي الكليةِ، جلستُ على الكرسي واشتريتُ كوباً من الشاي. فتاةٌ قريبةُ منّي تقول لصاحبتها: «شوفيه النوب لابس احمر»
تأملتُ كلماتها وتأملتُ قميصي، لا شيء يدعوها لإنكارِ ما أرتدي؛ فالحراسُ قد سمحوا لي بالدخولِ، كما سمحوا لكثيرٍ من الطالباتِ بارتداءِ ما يعجبهن مقابل زيارةٍ بسيطةٍ لذلك المكتب، لم أكمل الشاي، انزعجتُ منها فخرجتُ أتمشى للحديقةِ، يا الهي ما زال الجميع ينظر لي، جاء أحد أصدقائي، احتضنني بقوةٍ، شعرتُ بحرارةِ دموعه التي بللتْ قميصي، هل يكره الناس هذا القميص؟
- شبيك؟
تراجع عني

. شنو شبيك؟
. شبيك تبجي؟
ارتعب من فكرةِ عدم علمي بسببِ بكائه، تركني وهرب، ابتسامةٌ واحدةٌ كانت تومض من بعيدٍ، ريتا التي لا أحبذها لكنني مضطرٌ لسؤالها الآن، اتجهتُ نحوها فأقبلتْ بسرعةٍ، أردتها أن تتكلم عسى أن يوضح تبغددها الأمرَ، وبنبرةٍ ضاحكةٍ دامعةٍ قالتْ:
«آني آسفة»
ما أن أكملتْ عبارتها حتى كلمها أحدهم «هند، رئيس القسم يرديك» هند! ارتبكت ملامحها؛ فأفظع ما يحدث مع الفتاةِ هو أن يخطأ أحدٌ باسمها. تركتها وكلي خيبة...
سأذهب للشجرة علها تعرفني...
وقفتُ متعجباً تحت ظلها الذي يقصر يوماً بعد يوم، كالعادةِ يزعجني ذلك اللون الذي طليتْ به الجدرانُ والسقوفُ.
مهلاً... تلك اللوحة وحيدة هناك...
ادلهمتْ الدنيا بعيني، ضاق الكونُ حتى صار أقل من المساحةِ التي تشغلهما قدمي الواقفة، وقعتُ على الأرضِ ووقعتْ دموعي معي.
ما هذا ؟
ما الذي تقوله؟
من كتبها؟ من زخرفها؟ لا شك أنكم تكذبون؟ لا شك إن هذه الحروفَ تكذب؛ لذلك تستحق التمزيقَ، ركضتُ لها، أنزلتها، مزقتها، تكاد الأرضُ تنشق من صراخي، الجدرانُ تصرخ معي، السقفُ، الشجرةُ التي كنا نلتقي تحتها، التقينا الآن تحتها ولكن

هي لم تأتي بل أرسلتْ اسمها مكتوباً على لوحةٍ كاذبةٍ.
أعلمتْ أنني أحببتُ تلك الواقفة أمامي متأملة جنوني الأسودَ؟
ولماذا لم تنزعج؟ لماذا لم تتركني كما تفعل الفتيات؟ لماذا لم تصفعني لأصحو من هذا الكابوس الوردي.
ربما لأنها تعرف أنني أحببتها كثيراً للحدِ الذي يجعلني انظر لها وأنا في هذه الحالة لأرى حذاءها الفضي، ربما علمتْ أنني أعشقها منذ أن ولدنا فقررتْ الرحيلَ، ولكن كيف ترحلين قبل أن أجيب على رسالتك؟
يا الله! هل كان هذا آخر ما تمنّيتي سماعه فلم أحقق لك ذلك، أهملتك، أهنتك، وما زلت أصرخ وأصرخ ثم أصرخ من جديد...
أدركتُ ما علي فعله، تجشمتُ الصبرَ، مسحتُ دموعي، ربما ستكون أعظمَ خيانةٍ في التاريخ، لتكن، سأعترف الآن، فليس هنالك وقتٌ. اقتربتُ منها والعيون تحيط بي من كلِّ زاويةٍ، بذلتُ جهداً في قطفِ وردة مميزة رغم كونها اصطناعيةً، أمسكتها بيدي كما يمسك الجندي سلاحه، اقتربتُ بحذرٍ شديدٍ، عيونها تتقلب خوفاً، أم حباً لست ادري فالدمع لم يترك لي مجالاً واضحاً للرؤيةِ، وصلتُ لها...

. مرحبا

قالتْ «مرحبا» بحروف متقطعة

. نور

. نعم

. رسائلك لم تترك لي روحاً وأخشى أنها لا تترك لي جسداً أيضاً
ساكتة هي فأكملتُ أنا:

نور... أنا استسلم الآن، لم أعد أملك أي قوى، أنت ذكية جداً، وأنا... أنا... أنا أحبكِ جداً

ـ موسى...

كان صوتها ناعماً بالكادِ أسمعه

ـ نعم حبيبتي

ـ أنا لا أعرفك!

ـ ومن...؟ من...؟ من كان...

شعرتُ بأن عقلي ينفذ منّي فجاهدتُ للوصولِ للبيتِ... أخرجتُ الجرارَ، حزمتُ أوراقي وكتبتُ فوقها بخطٍ طفولي (رمانة) وخرجتُ أركض لاهثاً، وصلتُ إلى بيتها أجمعتُ قواي ورميتُ حزمةَ الورقِ كما يرمى الحب و...

***

هذا ما وجدته مرمياً أمام باب غرفتي ملطخاً بالترابِ، وبالدموعِ، وبالألمِ، والجنونِ، والصراخِ، لا أنكر أنني لم أفهم بعض الجمل؛ فأنا امرأة لم تقرأ الكثير، ولم تكتب، كلّ ما أريد قوله تظهره فرشاتي على أتم ما يكون، أنا امرأة تستخدم الألوان حروفاً، ورغم ذلك بكيتُ كثيراً لأنني فقدتُ اعز شخصٍ لا أعرفه! لم التقِ به يوماً! لو عرفته لأحببته بكلّ ما أملك... كم يرهقني التفكير به الآن، المشكلة أنني أريد معاتبته بشده لكنه فعل كلّ ما يمكن من أجلي. أنا ذلك الراكب الذي لا يعرف موعد رحلته وليس هو...

قضيتُ ليالٍ مظلمةٍ منفردةً بذاكرتي لأخرج ومعي موقفين: أولهما أتذكره جيدا عندما زارتني تلك الفتاةُ مع صديقتها التي تدعى ريتا ويسميها الجميع هند! وأعطتني رسالةً. قالتْ:

. عندما أغيب تسلميها لموسى

. لكني لا أعرفه!

. هو يعرفك.

. ولماذا أنا؟

. لأنني أثق بكِ.

وثانيهما عندما سلمتْ عليّ ريتا بقولها» هلو رمانة» وأنا لم أسمع أحداً يناديني بهذا الاسم أو حتى ينادي غيري به، أتذكر كيف ارتبكتْ وقفتي معها وأنا اشعر أنني أقف مع شخصٍ لا يعرفني. هذا كل ما املكه، موقفان ورسالة...

ليس لي أملٌ إلا برسالتها، ربما ستفسر شيئاً ما، ولكنها طلبتْ منّي تسليمها لموسى؟ موسى لم يعد له وجود؛ فأنا أسمع أخباره بين الفينةِ والأخرى وأسمع شكاوى الناس من صراخه، سأفتحها وما الضرر؟ موسى الآن حبيبي ومن حقي أن افتح رسالةً موجهةً له...

غلافٌ ورديٌّ اللونِ مزخرفُ الحواشي بورودٍ حمراءَ مكتوبٌ في وسطه (كن متأكداً من حبي لك حتى تقرأ بوضوحٍ) مزقته؛ ليس لقراءةِ الرسالةِ فقط بل لأن الغيرةَ اجتاحتني بالكاملِ...

أتذكر ريتا؟ تلك التي كتب الدرويش لها:

«اسمُ ريتا كان عيداً في فمي

جسمُ ريتا كان عرساً في دمي

وأنا ضعتُ بريتا سنتين
وهي نامت فوق زندي سنتين»
أتذكر قوله «وولدنا مرتين»؟ ألم تقرأ الرواية التي أهديتك، ألم تعرف أن اسم ريتا لا يلائم صديقتي هند وإن افتعلتْ الرقة؟ كل هذا وتتهمني بالغباءِ مازحاً أو جاداً، حبيبي النساءُ ذكياتٍ متى ما أردن، أشك بأنك ما زلت تجهل القصة؛ سأوضح لك كل شيءٍ بكلمتين، حبيبي لقد أحببتني مرتين وخنتني مرتين، خنتني معي وهذا لا يخفف ذنبك بل يضاعفه فقد جعلتني القاتلة والمقتولة في اللحظة نفسها، ولا تفكر بأني أسامحك حين أقول «حبيبي» فمن أجل الحب سأثر منك، أعلم أنك حزين على موتي وتتمنى لو أنني ما زلت على قيد الحياةِ.
أنا على قيد الحياة الآن...
وأغلب الظن أنك تقرأ رسالتي وأنا بين أحضان رجلٍ آخرَ، سائق التكسي، أتذكره؟ ذلك الرجلُ الذي تذوق كل النساء واختارني أنا، المشكلة أنني سأعود بعد سبعة أيام، حينها لن تستطيع الاقتراب مني، لا لشيءٍ فقط لأنك تكره النساء المتزوجات. . .

التوقيع
حبيبتك شهلاء
أو نور الهدى
أو رمانة كما سميتها...